"محمد ونهاية العالم"

للمستشرق الفرنسى بول كازانوفا

عرض ومناقشة

"محمد ونهاية العالم"

للمستشرق الفرنسى بول كازانوفا

عرض ومناقشة

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد

منشية الصدر - القاهرة

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

٥

بول كازانوفا وكتابه: "محمد ونهاية العالم"

بول كازانوفا (Paul Casanova) مستشرق وعالم آثار فرنسى (١٨٦١– ١٩٢٦م). ولد بالجزائر، ثم سافر إلى باريس سنة ١٨٧٩ م وتعلم بمدرسة اللغات الشرقية، وحاضر فى الكوليج دى فرانس ومدرسة اللغات الشرقية والجامعة المصرية، وكانت وفاته بالقاهرة سنة ١٩٢٦م. ومن آثاره "محمد ونهاية العالم"، و"جوهرة هارون الرشيد"، و"سر مذهب الفاطميين فى مصر"، و"ملاحظات حول رحلة السندباد البحرى"، وترجمة "خطط المقريزى" بالاشتراك.

وفى الكتاب الذى بين يدى القراء الكرام مناقشة لما جاء فى كتاب كازانوفا عن الرسول ونهاية العالم من افتراءات سخيفة متهافتة سوف نعرضها فيما يلى ونبين وجه الحق والضلال فيها . وقد قرأته بالفرنسية لغته الأصلية، وأحلت هنا إلى صفحات تلك الطبعة الفرنسية حيث يجد القراء الآراء التى أناقشها وأفنّدها . لكنى، بعد أن انتهيت من قراءة الكتاب فى لغته الأصلية، عثرت له على ترجمة إنجليزية (حديثة) أوردتها كاملة فى آخر هذا الكتاب لأن لغة جونبول أشيع فى بلادنا من لغة الفرنسيس، ومن ثم فهى أسهل على

القراء. وقد أوردت نص الترجمة الإنجليزية هنا حتى تكون أمام القراء الأعزاء الفرصة لمضاهاة ما أقول بما قاله المستشرق الفرنسى ويطمئن إلى أنى لم أفتئت عليه فى شىء.

وكان د. طه حسين معجبا أشد الإعجاب بكازانوفا. ويظهر هذا فى قوله عنه: "ولقد أريدُ أن يعلم الناس أنى سمعت هذا الأستاذ (كازانوفا) يفسر القرآن الكريم تفسيرا لغويا خالصا، فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسى بالأزهر ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا، على طريقة جديدة، نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقا"، "لولا كازانوفا ما فهمتُ القرآن" (صحيفة "السياسة"/ ١٩٢٢/٩/١ م)، "كان كازانوفا مسيحيا شديد الإيمان بمسيحيته، يذهب فيها إلى حد التعصب، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى فرانس نَسِىَ من المسيحية واليهودية والإسلام كل شئ" (السياسة/ ١٩٢٦/٣/٢٧م).

مناقشة آراء كازانوفا فى "محمد ونهاية العالم"

فى كتابه: "Mohammed et la Fin du Monde" (مكتبة پول چيوتنيه/ باريس ١٩١١م)، الذى ظللت أبحث عنه عشرات الأعوام، ولم أعثر على نسخة منه إلا منذ سنة تقريبا، يقول المستشرق الفرنسى پول كازانوفا (Paul Casanova)، ضمن ما يقول، إن من حقه كإنسان غير مسلم أن يشير إلى ما يقول إنها أخطاء محمد . جاء هذا الكلام فى سياق تفتيشه عن السر فى أنه صلى الله عليه وسلم لم يحدد للمسلمين الطريقة التى تنتقل بها السلطة من بعده إلى غيره من المسلمين، إذ كان الرسول، كما يقول، يؤمن بأنه لن تكون هناك حاجة أصلا لأن يخلفه أحد، إذ سوف تقوم القيامة فى حياته وينتهى كل شىء . لقد كان يظن أنه هو الذى بشر المسيحُ بظهوره عند نهاية العالم (ص٩ وما بعدها) .

فأما أن من حق كازانوفا أن ينظر إلى النبى محمد عليه الصلاة والسلام بعين غير عيون المؤمنين به فهذا من حقه، إذ إن ديننا لا يطالب الناس بالخُرُور على وجوههم صُمًّا وبُكْمًا وعُمْيًا مؤمنين به وبنبيّه وكتابه دون عقل أو تفكير. ولكننا من جهة أخرى نقول له: ابحث كما تشاء، وفكر كما تشاء، ولكن عليك أن تتخلص من تعصبك المقيت وتحاول أن تقترب بإخلاص نية وقوة عزيمة مما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم وأن تقول كلاما لا يدابر

المنطق ويخاصم العقل ويتحداه ويفتئت على وقائع التاريخ فتأتى بتفسيرات بهلوانية تتعامى عن الحقائق الناصعة. بل من حق كازانوفا أن يكفر بمحمد حتى لو ظهر له الحق ساطعا فى الآفاق، لكن لا يصح أن يلف ويدور محاولا استغفال قرائه بسَوْق أدلّة مضحكة لا يقتنع العقلاء بها . إن أحدا من البشر لن يحاسبه على كفره بالإسلام، لكننا سوف نقهقه من بهلوانياته المتساخفة كثيرا .

وأما أن الرسول لم يهتم بأمر حكم المسلمين من بعده فهذا غير صحيح، بل تناول ذلك الأمرَ القرآنُ والحديثُ، وإن اكتفيا فى هذا الميدان بإرساء المبادئ العامة فى غير قليل من الأحيان، إذ إن أساليب الحكم تختلف من عصر لعصر، والعبرة بالقيم الكريمة التى توجهه من عدل وشورى واحترام للرعية وسهر على مصالحها وعدم ظلمها أو الانحياز لطائفة أو طبقة منها على حساب طائفة أو طبقة أخرى بدون داع. وقد تكلم القرآن عن الشورى مثلا فى أكثر من موضع. كما طبقها الرسول تطبيقا رائعا فى كل تصرفاته ومواقفه السياسية ما لم ينزل عليه بشأن الأمر وحى من السماء . وكان الصحابة على مستوى هذا المبدإ فى حياته وبعد مماته صلى الله عليه وسلم. كما تحدث الرسول عن وجوب الرفق بالرعية والعمل على مصلحتها وعدم إرهاقها بما يُثْقِل كاهلها، وبيَّن أن هناك حكاما سوف يأتون من بعده لا

يراعون مبادئ الإسلام، وأثنى عليهم شرا وحذر منهم وخَوَّفهم العاقبة الأليمة التى تنتظرهم يوم الحساب. كما نهى الحاكمَ أن يضرب أبشار رعيته أو يأكل مالها أو يظلم أحدا منها، وحذر أيضا من ظلم أهل الذمة. وبالنسبة إلى أنه صلى الله عليه وسلم لم يحدد شخصا بعينه ليخلفه فى الحكم من أهله فهذا أمر طبيعى لأن الله لم يختره للنبوة كى يحولها إلى مكسب شخصىٍّ وأُسْرِىٍّ. كذلك منع الرسولُ المسلمَ من التطلع إلى الحكم والتهافت عليه على غير رغبة الناس قائلا إنه لا يولِّى أحدا ولايةً بناء على تشوُّفه وتحرُّقه إليها.

وعلى الناحية الأخرى نهى صلى الله عليه وسلم عن الخروج على الحاكم متى اتفقت الرعية عليه، وهو ما تجرى عليه الأمم الديمقراطية الآن حين تختار الأغلبيةُ حاكمَ الدولة، فلا يصح حينئذ أن يخرج أو يتمرد أو ينقلب عليه أحد ممن لم ينتخبوه بحجة أنهم لا يريدونه، إذ متى تم انتخابه فلا اعتراض عليه من هذه الجهة، إلى أن تقرِّر الأغلبية بعد ذلك فى انتخابات أخرى ألا تختاره لفترة حكم ثانية. ولو كان الرسول الكريم قد فعل ما يريده كازانوفا ما سَلِم أبدا من لسان كازانوفا وضُرَبائه واتهموه بأنه إنما ادعى النبوة كى يحوز السلطانَ ويورّثه لأهله من بعده. ولقد كان عليه السلام حازما جازما حين عرض عليه المشركون فى مكة الحكم ظنا منهم أنه إنما يريد بنبوته أن يكون رئيسا لهم، إذ أبى وأعلن فى حسم أنه نبى لا يريد

منهم الخضوع لسلطانه بل الانصياع لدعوة الحق التى أتاهم بها . فهو إذن يجرى على ذات المبدإ منذ أوائل نبوته حتى وفاته صلى الله عليه وسلم.

أما أن الرسول عليه السلام قد أتى هو والساعة متلازمين فصحيح أن هناك حديثا يقول: "بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين" (وأشار الرسول بإصبعين متجاورين من أصابعه)، لكنى أفهم الحديث الكريم على أنه لا نبى بعده، ومن هنا لن يفصل نبى أو رسول بينه وبين الساعة، فقد روى أبو هُرَيْرَةَ رضى الله عنه عَنْ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الأَنْبِيَاءُ: كُلَّمَا هَلَكَ نَبِى خَلَفَهُ نَبِى. وَإِنَّهُ لا نَبِى بَعْدِى". ولا يمكن فى الواقع أن يكون معنى الحديث غير هذا، فقد تحدث القرآن، الذى ينسب كازانوفا تأليفه إلى محمد، عن عالمية الإسلام وأن محمدا رسول إلى الناس جميعا، فكيف سينتهى العالَمُ مع موت الرسول، والإسلام لم يفتح العالَمَ بعد ؟ كما تنبأ النبى بأن الأرض سوف تُزْوَى لدينه فيبلغ منها ما بلغ الليل والنهار، بمعنى أنه سوف ينتشر فى كل الآفاق. فكيف يحدث هذا لو صح ما يهرف به كازانوفا من سخف؟ وكيف لم تَثُرْ فتنةٌ وتنازعٌ بين المسلمين حين يَرَوْن أن نبيهم الذى أكد لهم قيام الساعة قبل موته قد مات دون أن تقوم الساعة؟

والغريب أن كازانوفا (ص٦٩– ٧٠) يحاول أن يقنعنا بأن قوله تعالى فى سورة "القيامة": "أَوْلَى لكَ فَأَوْلَى * ثم أولى لك فأولى" معناه أن "الساعة أقرب إليك فأقرب إليك" . ثم يستغرب كيف أن المفسرين يقولون إن المخاطب هنا شخص آخر غير الرسول. وعبثًا تنظر لترى أى شىء يمكن أن يومئ إلى أن لفهمه هذا شيئًا من المعنى، فلا تجد . ذلك أن السياق الذى وردت فيه هذه العبارة يخلو من توجيه الكلام الإلهى إلى النبى عليه السلام. وهذا هو السياق كاملا: "كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)" .

وواضح أن الكلام موجه للكافرين، ثم انعطف الحديث إلى كافر لا يُسْلِم ويتصدق ويصلى، بل يكذب ويتولى معاندا متمردا دون أن يحكِّم عقله فيما يُدْعَى إليه، فيقول الله سبحانه وتعالى: "أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى" . أى ويلا لك. فهل هناك عاقل يقول إن الآيات تخاطب الرسول وتخبره أن "القيامة أقرب لك فأقرب، ثم أقرب لك فأقرب" . ترى ما معنى أن القيامة أقرب إلى الرسول فأقرب ثم أقرب فأقرب؟ أقرب إليه مِمَّنْ أو مِمَّ؟ ترى هل ستقع له قبل أن تقع للناس بفترة؟ ثم إن الكلام عن هذا الموضوع فى القرآن يذكر دائما كلمتى "الساعة والقرب" جميعا لا القرب وحده. كما أن تحديد ميعاد الساعة فيه لا يستخدم صيغة التفضيل: "أقرب" أبدا . وفتش فى القرآن من أوله إلى آخره فلن تجد فيه خطابا إلى النبى عن القيامة بهذه الطريقة البتة، إذ دائما ما يكون الرد الإلهى على أى سؤال عنها يوجَّه إليه عليه السلام بما معناه أن هذا الأمر ليس من اختصاصك بل من اختصاص الله. ولو افترضنا ، رغم ذلك كله، أن العبارة تعنى اقتراب القيامة وأنها موجهة للرسول فليس لتلك التكرارات والتأكيدات من معنى سوى أن الرسول كان لا يصدق بها أو على الأقل: يشك فيها ، فاحتاج إلى هذا العنف التعبيرى. وهو ما لا يمكن أن يكون.

وعـن سـعيد بـن جـبير: "سـألتُ ابـنَ عبـاسٍ عـن قـولِ اللهِ تعـالى: "أَوْلَـى لَـكَ فَأَوْلَى": أَشىء قالَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَمْ شىء أنزلَهُ اللهُ؟ قال: قالَهُ رسـولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنزلَهُ اللهُ". وفى المعاجم: "يقال فى التهديد والوعيد: أَوْلَى لَكَ: قد وَلِيَكَ، أى قارَبَكَ، الشَّرُّ، فاحذَرْ"، "كلمة تهديد معناها: الويل لك". وفى تفسير الطبرى لهاتين الآيتين نقرأ: "قوله: أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى: هـذا وعيد من الله على وعيد لأبى جهل كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: "أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى": وعيد على وعيد كما تسمعون. زعم أن هذا أنزل فى عدوّ الله أبى جهل. ذُكِر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم أخذ بمجامع ثيابه فقال: أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى. فقال عدوّ الله أبو جهل: أَيوعِدُنى محمد؟ والله ما تستطيع لى أنت ولا ربك شيئًا. والله لأنا أعزّ مَنْ مَشَى بين جبليها".

وفى "التحرير والتنوير" لابن عاشور: "قوله: "أَولَى لك": وعيد. وهى كلمة تَوَعُّد تجرى مَجْرَى المَثَل فى لزوم هذا اللفظ، لكن تلحقه علامات الخطاب والغيبة والتكلم. والمراد به ما يراد بقولهم: "ويل لك" من دعاء على المجرور باللام بعدها. أى دعاء بأن يكون المكروه أدنى شىء منه. "فأَوْلى": اسم تفضيل من "وَلِى"، وفاعله ضمير محذوف عائد على مقدَّر

معلوم فى العرف، فيقدره كل سامع بما يدل على المكروه. قال الأصمعى: معناه: قاربكَ ما تَكْرَه. قالت الخنساء:

هَمَمْتُ بنفسى كُلَّ الهمومِ فأولى لنفسى أولى لها

وكان القانص إذا أفلَتَه الصيدُ يخاطب الصيد بقوله: "أولى لك". وقد قيل إن منه قوله تعالى: "فأولى لهم" من قوله: "طاعةٌ وقولٌ معروفٌ" مستأنَفا وليس فاعلا لاسم التفضيل. وذهب أبو على الفارسى إلى أن "أَوْلَى" عَلَمٌ لمعنى "الوَيْل" وأن وزنه "أَفْعَل" من "الويل"، وهو الهلاك. فأصل تصريفه: أَوْيَلُ لك، أى أشدُّ هلاكا لك. فوقع فيه القلب (لطلب التخفيف) بأن أخرت الياء إلى آخر الكلمة وصار "أَوْلَى" بوزن "أَفْلَعَ"، فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قُلِب ألفا، فقالوا: "أولى" فى صورة وزن "فَعْلَى". و"الكاف" خطاب للإنسان المصرَّح به غير مرة فى الآيات السابقة بطريق الغيبة إظهارا وإضمارا، وعُدِل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات لمواجهة الإِنسان بالدعاء لأن المواجهة أوقع فى التوبيخ. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: أولَى له. وقوله: "فأولى" تأكيد لـ"أَوْلى لك" جىء فيه بفاء التعقيب للدلالة على أنه يُدْعَى عليه بأن يعقبه المكروه ويعقب بدعاء آخر. قال قتادة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد، فاستقبله أبو جهل على باب بنى مخزوم، فأخذ

رسولُ الله فلبَّبَ أبا جهل بثيابه وقال له: "أَوْلَى لك فأولى، ثم أَوْلَى لك فأولى" . قال أبو جهل: يتهددنى محمد (أى يستعمل كلمة الدعاء فى إرادة التهديد) ! فوالله إنى لأَعَزُّ أهلِ الوادى. وأنزل الله تعالى: "أولى لك فأولى" كما قال لأبى جهل. وقوله: "ثم أولى لك فأولى" تأكيد للدعاء عليه ولتأكيده السابق. وجىء بحرف "ثم" لعطف الجملة دلالة على أن هذا التأكيد ارتقاء فى الوعيد، وتهديد بأشدَّ مما أفاده التهديد الأول. وتأكيدُه كقوله تعالى: "كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون" (التكاثر: ٣- ٤)" .

وفى "الروض الأُنُف": "ذكر غير ابن إسحق فى حديث حجاج (بن علاط) أن قريشا قالت حين أفلتهم: "أولى له"، وهى كلمة معناها الوعيد . وفى التنزيل: "أَوْلى لك فَأَوْلَى" (القيامة)، فهى على وزن "أفعل"، من "وَلِى"، أى قد وَلِيَه الشرُّ. وقال الفارسى: هى اسم علم، ولذلك لم ينصرف. وجدت هذا فى بعض مسائله، ولا تتضح لى العلمية فى هذه الكلمة. وإنما هو عندى كلام حُذِف منه، والتقدير: الذى تصير إليه من الشر أو العقوبة أولى لك، أى: ألزم لك، أى: إنه يليك، وهو أولى لك مما فررت منه. فهو فى موضع رفع، ولم ينصرف لأنه وصفٌ على وزن "أفعل"، وقول الفارسى: "هو فى موضع نصب" جعله من باب "تبًّا له"، غير أنه جعله علما لمّا رآه غير منوَّن" .

وفى "الصاحبى" لابن فارس فى تفسير تلك الكلمة: "سمعت أبا القاسم على بن أبى خالد يقول: سمعت ثعلبا يقول: "أولى له"، أى داناه الهلاك. وأصحابنا يقولون: "أَوْلَى" تَهَدُّدٌ ووعيدٌ. وهو قريب من ذلك. وأنشدوا:

أُلْفِيَتَا عيناكَ عند القَفَا أَوْلَى فأَوْلَى لكَ ذا واقيَهْ

وقال قوم، وأنا أبرأ مِن عهدته: إن "أَوْلَى" مأخوذ من "الوَيْل". وكان للويلِ فعْلٌ وتصريفٌ دَرَجَ، ولم يبق منه إلا الويل قطُّ. قال جرير:

يَعْمَلْنَ بالأكبادِ وَيْلا وائِلا

فقوله: أَوْلَى: أَفْعَلُ من "الويل"، إلاَّ أن فيه القلبَ. وقال قوم: "أَوْلَى": داناهُ الهلاك، فلْيَحْذَرْ. قال:

أولى لكم ثم أولى أن تصيبَكُمُو مِنِّى نَواقِرُ لا تُبْقِى ولا تَذَرُ"

وهذه هى العبارة المذكورة فى شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين. قال زهير بن أبى سلمى مهددا:

أولى لهم ثم أولى أن تصيبَهمو مِنِّى بَوَاقِرُ لا تُبْقِى ولا تَذَرُ"

ويقول مَقّاس العائذى فى مقام التهديد أيضا:

أَوْلَى فَأَوْلَى يا امْرَأَ القَيْسِ بَعْدَما خَصَفْنَ بِآثارِ المَطِيِّ الحَوافِرا

وتقول الخنساء متحدثة عن همومها:

هَمَمْتُ بِنَفسِيَ كُلَّ الهُمُومِ فَأَوْلَى لِنَفسِيَ أَوْلَى لَهَا

(ويقول المبرد فى "الكامل" تعليقا على هذا البيت: "قَوْلُها: "فأولى لنفسى أولى لها":
يقول الرجل إذا حاول شيئًا فأفلته من بعد ما كاد يصيبه: أولى له! وإذا أفلت من عظيمة
قال: أولى لى! ويُرْوَى عن ابن الحنفية أنه كان يقول إذا مات ميت فى جواره أو فى داره:
أولى لى! كدتُ والله أكون السواد المختَرَم. . . وأنشد لرجل يقتنص، فإذا أفلته الصيد قال:
أولى لك! فكثر ذلك منه فقال:

فلو كان أَوْلَى يُطْعِم القومَ صِدْتُهم ولكنَّ أَوْلَى يترك القوم جُوَّعا")

ويقول حسان بن ثابت موجها الكلام للأعداء:

وَأَعْطَوْا بِأَيديهم صَغَارًا وَتابَعُوا فَأَوْلَى لَكُم أَوْلَى حُدَاةَ الزَّوَامِلِ

ويقول عوف بن عطية بن الخرع:

فَكَادَت فَزَارَةُ تَصْلَى بِنَا فَأَوْلَى فَزَارَةُ أَوْلَى فَزَارَا

بل إن القرآن ليستخدم، فى المعنى الذى يفسر به المستشرقُ الجهولُ كلمةَ "أَوْلَى"، ألفاظا من مادة "ق ر ب": "وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ" (النحل/ ٧٧)، "يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا" (الأحزاب/ ٦٣)، "اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ" (الشورى/ ١٧)، "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ" (القمر/ ١) . ولقد ورد تعبير "أولى لـ. . . " فى قوله تعالى فى الآية العشرين من سورة "محمد": "وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ". وواضح أنه دعاء عليهم وتهديد لهم بالويل والثبور والعقاب العظيم، ولا علاقة له البتة بالقرب والبعد. لكن كازانوفا عنيد غبى حقود، وقد كان هذا كله سببا فى الورطة التى ورط فيها نفسه دون أدنى داع.

كذلك لو كانت الساعة ستقوم فى حياة النبى عليه السلام فلم كان جوابه فى كل مرة يسأله فيها الكفار أو يستفسر المسلمون عن ميعادها أنه لا يعرف عن ذلك الأمر شيئًا إذ هو من الغيب الذى لا يعلمه سوى الله سبحانه؟ وقد تكرر هذا فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف كليهما: قال تعالى "يسألونك عن الساعة: أَيَّان مُرْسَاها؟ فيمَ أنت مِنْ ذكراها؟ إلى

ربك منتهاها"، وسأله ذات مرة أحد الصحابة عنها، فرد قائلا: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل". ولو كان كلام كازانوفا صحيحا لكان رده عليه السلام أنه لا وقت هناك لا للمماحكة والجدال ولا للاستفسار والسؤال، فالساعة فى طريقها بعد قليل إلى الانفجار. ثم لو كان الأمر كذلك فلم كانت كل تلك المعارك مع المشركين واليهود والروم والصراعات مع المنافقين إذا كانت الدنيا ستخرب تماما فى أعوام قلائل؟

وحين كان الكفار يستعجلون محمدا العذاب الذى يهددهم القرآن به كان رد القرآن: "وإمّا نُرِيَنَّك بعضَ الذى نَعِدُهم أو نتوفينَّك فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب". ومفهوم هذا النص، الذى تكرر فى القرآن بمعناه، هو أن العذاب الذى تُوُعِّد به الكفارُ قد يتأخر إلى ما بعد وفاة الرسول. ولو كانت القيامة ستقوم فى حياته لكانت سخرية المشركين منه عظيمة، وحَقَّ لهم، إذ يَرَوْنَه قد رجع فى كلامه وقال إن القيامة قد تتأخر إلى ما بعد وفاته. وهذه السخرية لم تحدث، لسبب بسيط هو أنه عليه السلام لم يقل قط إنها سوف تقوم أثناء حياته.

بل لقد بيَّن المولى عز وجل، ردا على استهزاء الكفار بالعذاب الذى يتوعدهم به، أن المقياس الزمنى عند الله يختلف عن مقاييسنا هنا على الأرض، فـ"إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون"، وقد يكون مقدار اليوم الإلهى "خمسين ألف سنة" من سنواتنا كما جاء فى

سورة "السجدة" و"المعارج" على التوالى. وقد رد القرآن على المشركين فى استبعادهم ميعاد العذاب الذى أوعدهم الله به فى الآخرة، فقال: "إنهم يَرَوْنه بعيدا * ونراه قريبا". ويبلغ الأمر أحيانا إلى الحد الذى يستعمل القرآن فيه الفعل الماضى بالنسبة لما سوف يقع من أحداث فى المستقبل، ومنه قوله تعالى مثلا فى سورة "الزُّمَر": "وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الارْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الارْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا . . .". فكيف يكون كازانوفا ضيق الأفق فى تمرده على الإيمان بالرسول إلى هذا الحد؟ لقد قلت قبلا إنه حر فى أن يكفر، لكن العاقل يعمل بقدر الإمكان على ألا يكون غرضا للتهكم والسخرية من قِبَل الآخرين دون داع.

ثم لدينا حديث النبى لزوجاته أنّ أسرعهن لحوقا به إلى العالم الآخر هى التى صفاتها كذا بما يدل على أنه سيموت، وتبقى زوجاته بعده زمنا. عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال: "أسرعكن لحاقًا بى أَطْوَلُكُن يدًا. قالت: فكنّ يتطاوَلْنَ أَيَّتُهنّ أطولُ يدًا. قالت: فكانت أطولَنا يدًا زينبُ. لأنها كانت تعملُ بيدِها وتَصَدَّقُ". ومثله الحديث التالى، وهو عن

فاطمة. قالت عائشة: "ما رأيت أحدا أشبه سَمْتًا ودَلا وهَديًا برسول الله فى قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: وكانت إذا دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم قام إليها فقبّلها وأجلسها فى مجلسه. وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبّلْته وأجلسته فى مجلسها . فلما مرض النبى صلى الله عليه وسلم دخلت فاطمة فأكَبّتْ عليه فقبّلْته ثم رفعت رأسها فبكت ثم أكَبّت عليه ثم رفعت رأسها فضحكت، فقلت: إنْ كنتُ لأظنّ أن هذه من أعقل نسائنا، فإذا هى من النساء . فلما تُوُفّى النبى صلى الله عليه وسلم قلت لها : أرأيتِ حين أَكْبَبْتِ على النبى صلى الله عليه وسلم فرفعتِ رأسك فبكيتِ، ثم أكببتِ عليه فرفعتِ رأسكِ فضحكتِ، ما حملك على ذلك؟ قالت: إنى إذن لبذرة. أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا، فبكيت. ثم أخبرنى أنى أسرع أهله لحوقا به، فذاك حين ضحكتُ" .

ثم ماذا عن النبوءات الأخرى الخاصة بفتح فارس والروم كقوله عليه السلام مثلا: "إذا فُتِحَت عليكم فارسُ والرُّومُ أى قومٍ أنتم؟ قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْف: نقول كما أمرَنا اللهُ. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أو غير ذلك. تتنافَسون ثم تتحاسَدون ثم تتدَابرون ثم تتباغَضون أو نحوَ ذلك، ثم تنطلِقون فى مساكينِ المهاجرينَ فتجعلون بعضَهم على

رقابِ بعضٍ"؟ وكيف يمكن أن يقف المسلمون الأوائل ساكتين، وقد مات نبيهم دون أن تُفْتَح فارس والروم كما خَبَّرَهم؟

وماذا عن الإشارات التالية وأمثالها إلى الساعة: "لا تقوم الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ يكونُ بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ دعوتُهما واحدةٌ، وحتى يُبْعَثَ دجَّالونَ كذَّابونَ قريبٌ من ثلاثين كلُّهم يزعمُ أنَّهُ رسولُ اللهِ، وحتى يُقْبَضَ العلمُ، وتَكْثُرَ الزلازلُ، ويتقاربَ الزمانُ، وتظهر الفتَنُ، ويكثُرَ الهَرْجُ، وهو القتلُ، وحتى يكثُرَ فيكمُ المالُ فيفيض حتى يهِمَّ ربُّ المالِ من يقبلُ صدقتَه، وحتى يعرِضَه، فيقول الذى يعرضُه عليه: لا أَرَبَ لى به، وحتى يتطاولَ الناسُ فى البنيانِ، وحتى يمرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ فيقول: يا ليتنى مكانَه، وحتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناسُ آمنوا أجمعونَ. فذلك حين "لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا". ولتقومنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلانِ ثوبَهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانِه. ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلبنِ لقْحَته فلا يَطْعَمُه. ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليطُ حوضَه فلا يسقى فيه. ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَتَه إلى فيه فلا يَطْعَمُها"، "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا التُّرْكَ صغارَ الأعيُنِ، تقاتلوا قومًا نعالُهم الشَّعَرُ"؟

وماذا نفعل بما جاء فى القرآن من أن الإسلام سوف ينتشر وينتصر على الأديان: "هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لينصره على الدين كله ولو كره الكافرون"، وهو ما تكرر فى القرآن مرتين بنفس الألفاظ تقريبا: مرة فى "التوبة"، ومرة فى "الصف"؟ ثم ماذا عن أحاديث آخر الزمان، ومؤداها أن الزمن سوف يتطاول ويتطاول حتى يقع كذا وكذا مما أنبأ به صلى الله عليه وسلم؟ وماذا نصنع مع قوله صلى الله عليه وسلم مثلا إن الأمم سوف تتداعى على المسلمين كتداعى الآكلين إلى القصعة رغم أنهم آنذاك كثيرون كثرة السيل، وهو ما لم يحدث إلا بعد قرون حين استطاع الغرب أن ينهض من تخلفه ويفتح الدنيا ويقسمها بين دوله وتُسْتَعْمَر معظم بلاد المسلمين، ومنها ما حدث فى فلسطين حين امتلخها اليهود بمعاونة الدول الغربية من أهلها وفعلوا بهم الأفاعيل وما فتئوا حتى يوم الناس هذا، ومنها ما حدث للعراق حين تجمعت الجيوش من كثير من بلاد العالم فحطموه ومزقوه على أعيننا جميعا، وما زال الحبل على الجرار مع غيره من بلاد المسلمين؟

نعم كيف كان يمكن أن يتم هذا دون أن يمتد الزمان بأمة الإسلام ويتطاول بعد وفاة النبى عليه السلام، فلا تقوم القيامة مع موته؟ وما العمل مع قوله تعالى: "وما محمد إلا رسول قد خَلَتْ من قبله الرسل. أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلبْ على عقبيه

فلن يضرَّ اللهَ شيئًا" ؟ أليس معناه بكل جلاء وسطوع أن محمدا سيموت قبل أمته، بما يعنى أن القيامة لن تقوم مع وفاته؟ ولنكن على ذكر من أن ذلك قد وقع كما ألمح القرآن، فاستغرب عمر أن يموت النبى، وظن فى البداية أنه إنما ذهب للقاء مولاه، وسيعود كما عاد موسى من لقائه بربه فوق الجبل.

والطريف أن كازانوفا يتخذ من هذا الحديث دليلا على صحة ما يزعمه كذبًا ومَيْنًا من أن عمر كان يعتقد أن النبى لن يموت قبل قيام الساعة (ص١٨) . لكن فات كازانوفا أن عمر لم يقل يوما، لا قبل هذا ولا أثناء هذا ولا بعد هذا، شيئًا يفهم منه أنه يعتقد هذا الاعتقاد الضال الذى اختلقه كازانوفا اختلاقا . ولو كان كلام المستشرق الفرنسى صحيحا لقال عمر، وهو الجرىء الذى لا يبالى بشىء ما دام يؤمن به، إننى أرفض موت النبى لأنه قال لنا فى القرآن والحديث إن الساعة لن تقوم قبل أن يموت. أليس هذا هو ما كان ينبغى أن يحدث من عمر؟ وإذا كانت هذه فاتت عمر ألم يكن بين المسلمين من يرافئه على هذا الاعتقاد فيتكلم هو؟ بالعكس كان ينبغى أن يكون هذا هو موقف المسلمين جميعا ورَدَّهم جميعا ؟

ثم ما دام كازانوفا قد استشهد بتلك الحادثة لقد كان قمينا به أن يقف أمام جواب الصِّدّيق على الفاروق إذ تلا عليه قوله تعالى: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم؟" ودلالته على أن القرآن قد تكلم عن موت النبى وبقاء أمته من بعده كما مر بيانه. أليس هذا هو ما يوجبه المنطق والعقل؟ كما أن سكوت عمر وتنبهه إلى معنى الآية وتسليمه بالأمر فى الحال دليل آخر على أنه لم يكن فى ذهنه أى أثر من تلك العقيدة السخيفة التى يتهم مستشرقنا الإسلام بها .

نعم لقد كان المسلمون جميعا أحرياء أن يقفوا كلهم موقفا واحدا من أبى بكر قارئين فى وقت واحد عليه آيات القرآن وأحاديث النبى التى تؤكد ما يقولون والتى تجاهلها هو رغم ذلك طبقا لمزاعم كازانوفا . لكن أحدا لم يفعل: لا عمر ولا غير عمر، وما كان له أن يفعل، إذ لم تكن هناك مثل تلك الآيات ولا هذه الأحاديث التى لا وجود لها إلا فى أوهام كازانوفا . ثم لقد شبه عمر موت النبى بذهاب موسى للقاء ربه فوق الجبل. ومعروف أن ذهاب موسى هذا لا علاقة له بقيام الساعة لا فى حينه ولا بعد حينه بل هو لقاء لا يترتب عليه شىء من الأحداث الكونية المتعلقة بالساعة. وعلى أية حال لقد رجع موسى إلى قومه

كرة أخرى، واستأنف حياته ودعوته، وكأن شيئا لم يكن. فما علاقة استغراب عمر لموت النبى بعقيدة قيام الساعة؟ إن كلام المستشرق لكلام متهافت فى الواقع أشد التهافت.

على أن كازانوفا يحاول أن يعضد رأيه القائل بما هو منسوب إلى ابن سبإ فى عهد عثمان بن عفان من قوله: "العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله تعالى: "إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ". ثم إن محمدا أحق بالرجوع من عيسى" (ص٢١). وواضح ألا وشيجة بين كلام ابن سبإ، إن كان ابن سبإ قاله حقا، وبين الاعتقاد فى تزامن موت النبى مع قيام الساعة. فهذا شىء، وذاك شىء آخر. وهذا إن صح أن ابن سبإ شخصية تاريخية حقيقية فعلا، وهو ما يشك فيه علماء كثيرون كما هو معروف، فضلا عن أن ابن سبإ إنما هو فرد واحد فى مقابل الأمة جميعا فى ذلك الوقت. وحتى لو كان قد تابعه بعض المسلمين على اعتقاده ذاك فما نسبتهم إلى الأمة جمعاء؟ ثم إن هذه النسبة الضئيلة لا تمثل الإسلام فى شىء أصلا.

إنها فرقة شاذة ضالة. كما أن طائفة من الذين يقبلون بوجود ابن سبإ تاريخيا يتهمونه بأنه إنما أراد تسريب بعض المعتقدات اليهودية فى الإسلام إفسادا له وإشاعة للفتن بين أتباعه. ومن ثم لا ينبغى أن نعير ما قاله كازانوفا حول هذه النقطة أى التفات. ومع هذا نراه

يقول إن ابن سبإ قد قال ذلك حتى ينقذ عقيدة تزامن موت النبى مع قيام الساعة، إذ إنه سوف يرجع إلى الحياة لدن نهاية العالم حتى يموت مع يوم القيامة كما كان يقول للناس فى القرآن والحديث. والسؤال الآن: هل التفت إلى هذا التخبط السبئى، إن كان لابن سبإ وجود فعلى، أحد يُعْتَدّ به بين المسلمين؟ المعروف أنه ما من دين أو عقيدة أو فلسفة إلا ويخرج منها ويفسق عنها كثير من أبناعها أو ممن يزعم اتّباعها، ولا تؤخَذ العقيدة أو الفلسفة أو الدين إلا من النصوص الحقيقية السليمة والأُصَلاء الذين يمثلونها حقا، وإلا فلن ننتهى.

ولنسمع أيضا هذا الحديث النبوى الكاشف: "أنا فَرَطُكم على الحوضِ. ولأنازعن أقوامًا ثم لأغلبن عليهم، فأقولُ: يا رب، أصحابى! أصحابى! فيقالُ: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك". أى أن الدنيا لن تنطوى صفحتها بموت الرسول بل سيكون هناك "بَعْدٌ" يُحْدِث فيه ناسٌ ينتسبون إليه ما يُغْضِب ربَّهم عليهم.

ومُضِيًّا مع التساخف الذى ينتهجه كازانوفا نراه يزعم أن المسلمين، بعد أن مات الرسول دون أن ينقضّ العالم على رؤوس الخلق كما زعم هذا المستشرق أن نبينا قاله، قد حوروا الأمر، فبدلا من قولهم للجماهير بعودة النبى التى لم تتحقق هى أيضا قالوا إن عليًّا سوف يعود، ثم سرعان ما استبدلوا أيضا محمد بن على بِعَلِىٍّ نفسه (ص٨٢). ولكن هل

هذه الألاعيب الكازانوفية من شأنها أن تحل المشكلة؟ لقد قال محمد، حسب زعم كازانوفا، إن نهاية العالم متزامنة مع نهايته، وهو ما لم يقع. فالمشكلة إذن مع محمد لا مع على ولا مع محمد بن على. ومن ثم لن يضع الحلَّ القائلُ بعودة على أو ابنه إلى الدنيا نهايةً لتلك المشكلة. ثم أى مسلمين يا ترى قالوا هذا أو ذاك؟ إن الذين قالوا بهذا مجموعة من الحمقى أو من الثعالب الماكرة. لقد كان المسلمون بعامة مشغولين بالأمور العظام التى كانت تدور رحاها فى جبهات الفتوح أو التى تتعلق بتدبير الدولة اقتصاديا وعسكريا واجتماعيا وغير ذلك، وليسوا فاضين لتلك السخافات التى لم يكن يرددها سوى سقط البشر. لكن كازانوفا قد أخذ على عاتقه منذ البداية تشويه الإسلام ونبى الإسلام وكتاب الإسلام وتاريخ الإسلام لمعرفته أنها حرب ثقافية حضارية، فهو يبذل كل جهده نصرةً لأمته وأمم الغرب فى الصراع بينها وبين المسلمين. والغريب أنه يختم الكتاب بأن كل مسلم يؤمن فى قرارة قلبه أن محمدا عائد إلى الدنيا كرة ثانية ليشهد على قيام الساعة ومجىء الحياة الآخرة، وأن هذا هو المحور الذى يدور عليه الإسلام. وهو بهذا يتجاهل أن الإسلام رسالة حضارية عظيمة ويريد أن يحوله إلى نُزُل للمَأْفُوفِين عقليا ونفسيا. فأىُّ خبل هذا؟ نعم تقول "طائفة من الشيعة" إنهم فى انتظار خروج "المهدىّ المنتظر" من السرداب الذى دخله منذ نحو ألف عام. لكن هذا شىء، والزعم بأن "المسلمين جميعا" ينتظرون عودة "الرسول" شىء آخر.

ورجوعا إلى الأحاديث التى تتحدث عما سوف يقع للمسلمين "بعد" وفاة النبى صلى الله عليه وسلم نورد الحديث التالى الذى يرويه العرباض بن سارية. قال: "صلَّى بِنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الصبحَ ثُمَّ وعظَنَا موعظةً بليغةً ذرَفَتْ منها الأعينُ ووجلَتْ منها القلوبُ، فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ، كأنَّها موعظةُ مُوَدِّعٍ. فأَوْصِنا. قال: أُوصِيكُمْ بتقْوَى اللهِ عز وجل والسمعِ والطاعةِ، وإنْ كان عبدًا حبشيًّا. فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكمْ بعدى فسيَرَى اختلافًا كثيرًا. فعليكُمْ بسنَّتِى وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهدِّيِّينَ مِنْ بَعْدى، وعضُّوا عليها بالنواجذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ".

ويشبهه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم كان عنده يوما نفر من قريشٍ فقال لهم: "ألا إنَّكم وُلاةُ هذا الأمرِ من بعدِى، فلا أعرِفُنى ما شَقَقْتُم علَى أمتى من بعدى. اللَّهمَّ مَنْ شَقَّ على أُمَّتى فَشُقَّ علَيه"، وكذلك ما روته عائشة من قوله عليه السلام لها: "إن قومَكِ استقْصَروا مِنْ بنيانِ البيْتِ. ولولا حَدَاثَةُ عهْدِهِمْ بالشّرْكِ أعدتُ ما تركوا منه. فإنْ بدَا لقومكِ مِنْ بعدى أن يَبْنُوه فهَلُمّى لأُرِيَكِ ما تَرَكُوا منه. فأَرَاها قريبًا مِنْ سبْعَةِ أذرُعٍ". ومثله: "إنَّ الدّينَ ليأْرِزُ إلى الحجازِ كما تأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها، وليعقلَنَّ الدِّينُ منَ الحجازِ معقلَ الأرويَّةِ من رأسِ الجبلِ. إنَّ الدّينَ بدأَ غريبًا ويرجعُ غريبًا، فطوبَى للغرباءِ الَّذينَ يُصلحونَ ما

أفسدَ النّاسُ مِن بعدى مِن سُنّتى"، "سيكونُ أُمَراءُ مِن بعدى يقولونَ ما لا يفعَلونَ ويفعَلونَ ما لا يُؤمَرونَ. فمَن جاهَدهم بيدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدهم بلسانه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدهم بقلبِه فهو مُؤمِنٌ. لا إيمانَ بعدَه"، "اللهَ اللهَ فى أصحابى. لا تتَّخذوهم غرضًا من بعدى. فمن أحبَّهم فبحُبّى أحبَّهم، ومن أبغضهم فببُغضى أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذَى اللهَ، ومن آذَى اللهَ يُوشكُ أن يأخذَه"، "لا ترجعوا بَعدى كُفّارًا، يَضربُ بَعْضُكم رقابَ بعضٍ"، "أيمُ اللّه لأترُكَنَّكم علَى مثلِ البيضاء، ليلُها كنَهارها سواءٌ. فقالَ أبو الدَّرداء: صَدقَ اللّهُ ورسولُهُ، فقد تركَنا علَى مِثْلِ البيضاء"، "لَيَغْشَيَنَّ أمتى من بعدى فتنٌ كقطعِ الليلِ المُظْلِمِ يُصْبِحُ الرجلُ فيها مؤمنا ويمسى كافرا، ويمسى مؤمنًا ويُصْبِحُ كافرًا. يَبيعُ أقوامٌ دينَهم بعَرَضٍ من الدنيا قليلٍ"، "سيكون بعدى أُمتى قومٌ يَقرأونَ القرآنَ لا يُجاوزُ حلاقيمَهمْ، يَخْرُجونَ من الدّينِ كَمَا يخرجُ السَّهمُ من الرَّمِيَّة ثُمَّ لا يَعودونَ فيه. هُمْ شَرُّ الخلقِ والخليقة"، "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياءُ: كلما هلك نبى خَلَفَه نبى. وإنه لا نبى بعدى، وسيكون خلفاءُ فيكثرون"، وعن سعد بن أبى وقاص "أن رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرجَ إلى تَبُوكَ، واسْتَخْلَفَ عَليًّا، فقال: أتُخَلِّفُنى فى الصّبيانِ والنساء؟ قال: ألا تَرْضَى أنْ تكونَ منّى بمَنْزلَة هارونَ منْ مُوسَى؟ إلا أنهُ ليس نبى بَعْدى"، "إن اللهَ حبَسَ عن مكةَ الفيلَ وسلَّطَ عليها رسوله والمؤمنين، فإنها لا تَحِلُّ لأحدٍ كان قبلى، وإنها أُحلَّتْ لى

ساعةً مِن نهارٍ، وإنها لا تَحِلُّ لأحدٍ بعدى"، "مما أخافُ عليكم بعدى ما يُفْتَحُ عليكم مِن زَهْرَةِ الدنيا وزينَتِها"، "ما تَركتُ بَعْدى فتنَةً أضرَّ على الرجالِ منَ النساءِ"، "إنكم ستَرَوْن بعدى أَثَرَةً وأمورًا تُنكرونها"، "واللهِ ما أخافُ عليكم أنْ تُشرِكوا بَعْدى، ولَكنّى أخافُ عليكم أنْ تنافَسوا فيها"، "قال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصارِ: إنكم ستَلْقَوْن بعدى أَثَرَةً، فاصبروا حتى تَلْقَوْنى، وموعدُكم الحوضُ"، "مِنْ أشدّ أمَّتى لى حبًّا ناسٌ يَكونونَ بعدى يودُّ أحدُهُم لَو رآنى بأَهْلِه ومالِه"، "طُوبَى للغرباءِ الَّذينَ يُصلِحونَ ما أفسدَ النَّاسُ مِن بعدى مِن سُنَّتى"...

وهناك حديث أبى هريرة التالى، وهو "أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتى المقبرةَ فقال: السلامُ عليكُمْ دارَ قومٍ مُؤمنينَ. وإنا إنْ شاء اللهُ بكمْ لاحقونَ. وددتُ أنَّا قدْ رأينا إخوانَنا . قالوا: أوَلَسْنَا إخوانَك يا رسولَ اللهِ؟ قال: أنتم أصحابى، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ . فقالوا: كيفَ تعرفُ منْ لم يأتِ بعدُ من أمتكِ يا رسولِ اللهِ؟ فقال: أرأيتَ لو أنَّ رجلا لهُ خيلٌ غُرٌّ محجَّلَةٌ بين ظَهْرَيْ خيلٍ دُهْمٍ بُهْمْ، ألا يعرف خَيْلَهُ؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ! قال: فإنهمْ يأتونَ غُرًّا مُحَجَّلينَ منَ الوضوءِ . وأنا فَرَطُهمْ على الحوضِ. ألا لَيُذادَنَّ رجالٌ عنْ حوضِى كما يُذادُ البعيرُ الضالُّ. أُناديهم: ألا هَلُمّ! فيقال: إنهمْ قد بدَّلوا بَعْدَكَ. فأقولُ:

سُحْقًا سُحْقًا" . ومثله: "اللهَ اللهَ فى قِبْطِ مصرَ، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّةً وأعوانًا فى سبيلِ اللهِ" .

ومثله حديث حذيفة بن اليمان: "كان الناسُ يَسْأَلونَ رسولَ الله صلّى اللهُ عليه وسلَّم عن الخيرِ، وكنتُ أسأَلُه عن الشرِّ مَخَافَةَ أن يُدْرِكَنى، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنا كنا فى جاهليةٍ وشرٍّ، فجاءنا اللهُ بهذا الخيرِ، فهل بعدَ هذا الخيرِ من شرٍّ؟ قال: نعمْ. قلتُ: وهل بعدَ ذلك الشرِّ من خيرٍ؟ قال: نعمْ، وفيه دَخَنٌ. قلتُ: وما دَخَنُه؟ قال: قومٌ يَهْدُونَ بغيرِ هَدْيِى تَعرِفُ منهم وتُنكِرُ. قلتُ: فهل بعدَ ذلك الخيرِ من شرٍّ؟ قال: نعمْ، دُعاةٌ على أبوابِ جَهَنَّمَ. مَنْ أجابهم إليها قَذَفوه فيها . قلتُ: يا رسولَ الله، صِفْهم لنا . قال: هم من جِلْدَتِنا، ويتكَلَّمونَ بألسنَتِنا . قلتُ: فما تأمُرُنى إن أدركَنى ذلك؟ قال: تَلزَمُ جماعةَ المسلمينَ وإمامَهم. قلتُ: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: فاعتَزِلْ تلك الفِرَقَ كلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصلِ شجرةٍ، حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنت على ذلك" . ومثله كذلك الحديث الذى رواه عتبة بن غزوان، ونصه: "إنَّ مِن ورائِكم أيامَ الصَّبرِ. للمُتَمَسِّكِ فيهنَّ يومئذٍ بما أنتم عليه أجرُ خمسين منكم. قالوا: يا نبى اللهِ، أو منهم؟ قال، بل منْكم" .

ولدينا كذلك دعاء الرسول يوم بدر حين احتدمت المعارك، فاتجه عليه السلام إلى ربه مبتهلا من أعماق قلبه طالبا منه النصر والعون: "لما كان يومُ بدرٍ نظر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المشركين، وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثمائة وتسعةَ عشرَ رجلا، فاستقبل نبى اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القبلةَ ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربِّه: اللهمَّ أنجزْ لى ما وعدتنى. اللهمَّ آتِ ما وعدتنى. اللهمَّ إن تهلك هذه العصابةُ من أهلِ الإسلامِ لا تُعْبَد فى الأرض. فما زال يهتف بربِّه مادًّا يديه مستقبلَ القبلةِ حتى سقط رداؤُه عن منكبيه. فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءَه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبى الله، كفاك مُناشَدتُك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ". والشاهد فى هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعْبَد فى الأرض". ومعنى هذا أن الرسول يمكن أن يهلك هو والمسلمون، وتبقى الأرض وأهل الأرض بعدهم.

وفى حجة الوداع يخاطب صلى الله عليه وسلم الصحابة الذين رافقوه فى أداء المناسك: "إِنَّ الزَّمانَ قد اسْتَدارَ كهَيْئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السموات والأرضَ. أيُّها الناسُ، اسْمَعُوا قَوْلِى، فإنى لا أَدْرِى لَعَلِّى لا أَلْقَاكُمْ بعدَ يومِى هذا فى هذا المَوْقِفِ. . ." إلى آخر ما قال.

والعبرة فيه قوله عليه الصلاة والسلام لهم: "إنى لا أَدْرِى لَعَلِّى لا أَلْقَاكُمْ بعدَ يومِى هذا فى هذا المَوْقِفِ" . أى أنه سيموت وَيَبْقَوْن هم بعده وحدهم من دونه. فلو كانت الساعة تتزامن وموتُه عليه السلام ما بقى بعده أحد من أصحابه لأن الساعة ستأخذ الجميع. أليس ذلك هو ما يقتضيه المنطق؟ ولكن منذ متى كان المستشرقون من أمثال كازانوفا يبالون بالمنطق أو بالحياء؟

وفى سورة "الزُّمَر" يطالعنا قوله تعالى من القرآن المكى: "إنك ميتٌ، وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون"، وفيه أنه وإياهم ميتون، أما يوم القيامة فيأتى براحته فى ميعاده. والآية تتحدث بنفسها ولا تحتاج إلى من يشرحها، فهى من الوضوح بمكان مكين. وهناك أيضا أخبار موته صلى الله عليه وسلم، وليس فى أى منها ما يشير من قريب أو من بعيد أو على سبيل التوهم إلى أنه عليه السلام كان يتصور أن القيامة ستقوم فى نفس الوقت الذى يموت فيه، بل كان يقول وهو فى سكرات الموت ما يدل على رسوخ إيمانه بالله وصلابته رسوخ الجبال الرواسى وصلابتها، إذ يهمس فى إيمان وثيق: "إلى الرفيق الأعلى" . ولو كان نبيا كذابا وَعَدَ الناسَ وعودا كاذبات لاضطرب أمام الموت لأنه قد فضحه وأخزاه وأظهر عوراته الفكرية والدينية. قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: "كان رسول اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول وهو صحيحٌ إنه لم يُقْبَض نبى قط حتى يرى مقعدَه فى الجنة، ثم يُخيَّرُ. قالت عائشةُ: فلما نزل برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ورأسُه على فخذى، غُشِى عليه ساعةً ثم أفاق، فأشخصَ بصرَه إلى السقف، ثم قال: اللهم الرفيقَ الأعلى. . . فكانت تلك آخرَ كلمةٍ تكلم بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. قوله: اللهم الرفيقَ الأعلى".

ثم أين فى القرآن المجيد أو فى الحديث الشريف ما يربط بين موت الرسول عليه السلام وبين قيام الساعة؟ أتحدى كازانوفا أن يأتينا بشىء من ذلك. وهذا هو النص القرآنى الوحيد الذى يشير إلى إخبار السيد المسيح بمجىء نبينا من بعده برسالة السماء: "وإذ قال عيسى بن مريم: يا بنى إسرائيلَ، إنى رسول الله إليكم جميعا مصدّقًا لما بين يدىَّ من التوراة ومبشّرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمُه أحمدُ". وكما نرى جميعا ليس فيه أى ربط بينه وبين وقوع الساعة. بل إن النص الذى يعتمد عليه المسلمون من إنجيل يوحنا فى القول بتنبؤ المسيح بمحمد عليهما السلام ليخلو من هذا الربط تماما. يقول يوحنا فى الإصحاحات الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر على التوالى من إنجيله على لسان السيد المسيح: "وَأَمَّا الْمُعَزِّى، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِى سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِى، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَىء، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا

قُلْتُهُ لَكُمْ"، "وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّى الَّذى سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآب، رُوحُ الْحَقّ، الَّذى مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِى"، "لَكِنِّى أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّى، وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ".

ليس ذلك فحسب، بل إن القرآن والرسول ليخالفان النصرانية فى بعض الأشياء، ويؤكدان مثلا أن عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد لله ونبى من أنبيائه وأنه لم يُصْلَب بل رفعه الله إليه أيًا كان معنى الرفع: هل هو بالجسد أم بالمكانة والمجد ؟ إن كلام كازانوفا ليوحى بأن النبى كان يجد فى ربط نفسه بعيسى عليه السلام مفخرة مع أنه صلى الله عليه وسلم رغم تواضعه قد بين ما خص الله به دينه من امتيازات فاق بها أديان إخوانه الرسل جميعا بما فيهم عيسى عليه السلام: "فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعْطِيتُ جوامعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأُحِلَّتْ لى الغنائمُ. وجُعِلَتْ لى الأرضُ طَهُورًا ومسجدًا، وأُرسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافَّةً، وخُتِمَ بى النبيُّونَ". وهناك أيضا الحديث التالى الذى يؤكد أن عيسى عليه السلام متى ما عاد إلى الدنيا فلسوف يحكم بشريعة الإسلام: "لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فيَكْسِرَ الصَّليبَ ويقتلَ الخنزيرَ ويضعَ الجزيةَ ويفيضَ المالُ حتَّى لا يقبلَهُ أحدٌ".

ومما يستشهد به كازانوفا على صدق مزاعمه الآية الثانية من قوله تعالى فى سورة "الزمر": "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الارْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ"، وقوله تعالى من سورة "النمل": "وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الارْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ" (ص٣١ وما بعدها) . فماذا فى هذين النصين مما يمكن أن يفهم منه أن يوم القيامة سيقع فى حياة النبى عليه السلام؟ والحمد لله مع ذلك أن كازانوفا لم يقل إن محمدا كان يعتقد أن قيام الساعة قد وقع ومضى وانتهى الأمر، بناء على استخدام القرآن الفعل الماضى فى "ونُفِخ فى الصور فصَعِق من فى السماوات والأرض، ثم نُفِخ فيه أخرى. . . " .

والمضحك أنه يعزو الاختلاف بين الآيتين ما بين "صعق" و"فزع" إلى نسيان الكاتب الذى كان يسجل القرآن أو اشتباه الأمر عليه، وكأن النبى كان يقرأ كل وحى طازج على كاتب الوحى ثم يتركه، فيذهب الكاتب يقضى حاجات بيته ويأكل ويشرب ويذهب إلى الحقل ويسمر مع أصدقائه أو أهله إلى أن يتذكر آخر الليل أو فى اليوم التالى أو بعد عدة أيام أن الرسول قد قرأ عليه نصوصا من الوحى لم يكتبها بعد، فحينئذ وحينئذ فقط يفكر فى

تسجيل ما سمعه، بل ربما غلب عليه الكسل فأجل التسجيل إلى وقت آخر حين ميسرة. إن كتّاب القرآن أو كتّاب أى شىء كانوا يسجلون ما يطلب منهم كتابته فى التو واللحظة أيها المستشرق غير الظريف وغير الذكى ! ولنفترض أنه أخطأ لسبب أو لآخر، أترى الرسول، والصحابة الذين سمعوا النص القرآنى فور نزوله وحفظوه، كانوا ليسكتوا فلا يُبْدُوا ملاحظتهم على هذا الخطإ وتلتقطه الروايات وتدور به هنا وها هنا شأن أى شىء آخر؟ ثم ما المشكلة هنا ، وكل آية من هاتين الآيتين إنما تتناول الحدث الجلل فى مرحلتين مختلفتين: مرحلة الفزع، ثم مرحلة الصعق؟

وقد زعم كازانوفا أن أتباع محمد قد غيروا فى القرآن ونقحوا بعد موته حتى لا تظهر عورة نبوءته بقيام الساعة فى عهده (ص٣) . وهذا هو السخف بعينه، إذ لا دليل على ما يقول ولا نص ولا وثيقة. ثم كم من الوقت يا ترى أخذ أولئك المنقحون حتى أتموا مهمتهم الشيطانية هذه؟ وأين ومتى فعلوا ذلك؟ ومن يا ترى قام بذلك العمل؟ وكيف؟ إنه لو حدث شىء من هذا لكانت فتنةٌ وهياجٌ ومعارك. ونحن نعرف أن من المسلمين من لم يقبل جمع عثمان للناس على قراءة واحدة رغم ما فى ذلك من خير ورغم ما قدم من خدمات جُلَّى للإسلام، فاشتعلت الفتنة ولم تنته إلا بمقتله عليه رضوان الله. فكيف لو جرت أيدى

العبث فى كتاب الله كله حذفا وإضافة وتغييرا وتقديما وتأخيرا وتخليطا ؟ الواقع أن كازانوفا وأمثاله إنما ينطلقون من التعصب المقيت على الإسلام يريدون أن يشيعوا التشكيك فيه والتقليل من شأنه وينشروا عنه الاتهامات الزائفة الجزافية مُعَوِّلين على أن كثرة الدوىّ فى الآذان أَمَرُّ من السحر.

وقد ساق كازانوفا بعض أمثلة على التنقيح الذى يزعم أن الصحابة قد قاموا به بعد وفاة النبى، ومنها قوله تعالى فى سورة "الشورى": "فإما نُرِيَنَّكَ بعض الذى نَعِدُهم أو نَتَوَفَّيَنَّكَ. . ."، إذ يدعى أن الصحابة قد أضافوا من عندهم عبارة "أو نتوفينك" على اعتبار أن الرسول قد مات على حين أن الساعة لم تقم (ص٣٥ فصاعدا). وليس هناك أى دليل على حدوث هذا الذى يزعم. بل لو افترضنا المستحيل وقلنا إنه قد وقع فعلا أفيظن ظانٌّ أن الأمر كان لِيَمُرّ سهلا دون فتن وهياج ومعارك وانقسامات بين المسلمين؟ ثم فلنفترض مرة أخرى أنهم قد فعلوا ذلك، فلماذا ؟ إن النص القرآنى فى هذه الحالة سيكون: "فإما نرينك بعض الذى نعدهم فإلينا يرجعون". والجملة شرطية، والشرط يمكن أن يقع ويمكن ألا يقع. ومعنى هذا أنه قد لا يقع، وحينئذ لا يقع جواب الشرط، ومن ثم لن يكون هناك فى هذه الحالة الثانية أى رجوع للكفار إلى الله أو انتقام منهم. إن منطوق الكلام فى هذه الحالة

هو: "فإما نرينك بعض الذى نعدهم فإلينا يرجعون"، ولكن ماذا عن مفهومه؟ المعنى أنه إن لم يُرِهِ ربُّه بعض هذا الذى أوعدهم به فلن يرجعوا إلى ربهم. فهل هذا كلام يستقيم؟ إن القرآن يوقع نفسه فى مشكلة ولا أبا حسن لها. أرأيتم سخفا كهذا السخف الذى يتوهمه المستشرق الأخطل؟

وقس على ذلك قوله تعالى فى سورة "الزخرف": "فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ"، الذى لو جرينا على أوهام كازانوفا فيه لكان نص الآية كالتالى: "فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ". وهذا هو منطوق الآية، فماذا عن مفهومها؟ مفهومها أنه إن لم يره ربه العقاب الذى توعدهم به فليس بمقتدر عليهم. فهل هذا هو ما يريد القرآن أن يقوله؟ ترى أكان المشركون ليصمتوا فلا يتهكموا ويقهقوا ملء رِئاهم وأكمامهم؟ واضح أن الكلام غير مستقيم.

كذلك فالقرآن لا يستخدم "إما" التفصيلية إلا مع وجود حالتين: حالة حدوث الشىء وحالة عدم حدوثه، مع استقامة جواب الشرط فى الحالتين. أما على الوضع الذى يزعم المستشرق الفرنسى أنه هو الأصل فالأمر لا يستقيم أبدا. وهذان هما النصان اللذان وردت فيهما "إما" بهذا المعنى فى كتاب الله: "فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ

يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ" (الأنفال)، "فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا" (محمد) . فلماذا إذن تشذ "إما" بالذات فى هاتين الآيتين اللتين يدعى المستشرق الفرنسى أن يد العبث قد طالتهما ؟ عجيب أمر هذا الرجل وأشباهه! إنهم يضعون أنفسهم فى مآزق أضخم من أحجامهم العلمية. قاتل الله العناد والتمرد غير الحصيف !

ومن الأمثلة التى يسوقها كازانوفا شاهدا على العبث الذى يريد أن يوهم القراء أنه لحق القرآن بعد موت النبى عليه السلام قوله تعالى فى سورة "الشورى": "وأَمْرُهم شُورَى بينهم"، إذ قال إن كلمة "أمر" كلمة مطاطة، وإن عمر وأنصاره هم الذين ألصقوها بالقرآن بعد أن لم تكن موجودة فيه لكى يقضوا على تطلع علىٍّ فى خلافة الرسول، إذ بدلا من ترك علىٍّ يتسنم هذا المنصب شَكَّل عمر، قبيل موته من طعنة أبى لؤلؤة، جماعة من ستة صحابة يتشاورون حول تولية واحد منهم خلافة المسلمين من بعده، فادعى أن القرآن قد حض على الشورى بقوله تعالى عند تعديد صفات المؤمنين الصادقين: "وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" (ص١٥١ وما بعدها) .

وفات هذا المدلس عدة أمور: أن كلمة "الأمر" ليست مطاطة كما يقول ولا تعانى من أى غموض. والمقصود منها بكل بساطة أن عليكم، أيها المؤمنون، الالتزام والانتفاع بالشورى فى كل أمر تُقْدِمون عليه، سواء كان فرديًّا أو جماعيًّا . . . إلخ، ومنه بل على رأسه الشورى فى أمور الحكم بطبيعة الحال. وثانيا فإن الرسول لم يورث المسلمين لأحد من أهل بيته لأن المسلمين ليسوا متاعا يورث ولا عبيدا ينتقلون من يد إلى يد دون أن يكون لهم فى الأمر كلمة. وما تقوله الشيعة غير مقبول أبدا رغم أنى لا أَعُدّ نفسى منتميا إلى أية فرقة من فرق المسلمين. إنما أنا مسلم وكفى.

وثالثا لقد كانت مسألة خلافة علىٍّ للنبى قد حُسِمَتْ قبل ذلك حين تولى أبو بكر الخلافة عقب موت النبى عليه السلام. ولو كان الأمر كما فسره كازانوفا هذا التفسير الحلمنتيشى لمد الصِّدِّيق نفسه آنذاك يد العبث والإفساد إلى القرآن ولم ينتظر الأمر أكثر من عشرة أعوام إلى العدوان على عمر. ثم هل يظن كازانوفا أنه يخاطب فينا قوما معاتيه؟ أترى عليا والصحابة الذين يناصرونه كانوا ليسكتوا وهم يرون عمر وأنصاره يتلاعبون بالنص القرآنى على هذا النحو الوقح؟ أم هل يظن أنهم قد طُمِس على ذاكرتهم فنَسُوا النص القرآن

الصحيح فى سورة "الشورى" أو اعتراهم الخرس فلم يستطيعوا أن يتفوهوا بشىء؟ أنا لا أدرى كيف يفكر هذا الرجل وأمثاله؟

ورابعا فإن الرد على دعوى كازانوفا بأن عبارة "وأمرهم شورى بينهم" لا تتسق مع السياق لا نحويا ولا مضمونيا هو كما يلى: فأما نحويا فلست أدرى، ولا أظننى سوف إخال أدرى، لماذا لا تتسق نحويا مع سائر الآية. هل هناك مانع من ذلك؟ فما هو؟ الواقع أنى لا أستطيع أن أتخيل شيئا فى الجملة يمكن أن يمنعها الاتساق مع ما حولها . أتراه يقصد أنها جملة اسمية، بينما الجمل التى تسبقها جمل فعلية؟ لكن متى كان ذلك ممنوعا فى النحو العربى أو مانعا من اتساق الكلام بعضه مع بعض؟ مرة أخرى تقول الآية: "وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)" . فالجملة الأخيرة فى الآية فيها تقديم وتأخير، وهو ما لا وجود له فى الجمل السابقة فيها . فهل نحذفها هى أيضا لأنها ليست متسقة مع بقية الآية؟ وكثيرا ما يعطف القرآن جملة فعليه فعلها مضارع على أخرى فعلها ماض أو يأتى بها بعدها دون عطف، بل كثيرا ما نفعلها نحن. ألا نقول كثيرا مثل العبارة التالية: "سوف ينجح الذين استذكروا دروسهم وأَدَّوْا واجباتهم، وعلى الكتب يعكفون"؟ بلى. فما المشكلة إذن؟ وعندنا مثلا سورة "الإخلاص"، التى تقول: "قل هو الله

أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد": فجملتا "الله أحد، الله الصمد" جملتان اسميتان، ثم أتت بعدهما عدة جمل فعلية رغم أن الكلام كله عن الله سبحانه.

ولماذا نذهب بعيدا، ولدينا الآيات التى تسبق هذه الآية والتى تجرى على النحو التالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الارْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِى وَلا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِى فِى الْبَحْرِ كَالاعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الاثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ

مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الارْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِى مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤)" حيث تتجاور أو تتعاطف الجمل الفعلية والاسمية كما يرى القارئ بنفسه، إذ لا أظنه بحاجة بأن أوضح ذلك له.

أما أن مضمون الآية لا يتسق مع مضمون الآيات التى حولها فالمعروف أن القرآن كثيرا ما يورد آيات كهذه. ومن ذلك أننا فى سورة "البقرة" أثناء الحديث عن الرضاعة وأنواع العدَّة التى ينبغى أن تقضيها المرأة بعد طلاقها أو ترمُّلها حسب حالاتها البيولوجية المختلفة قبل أن يصح زواجها من جديد نقرأ فجأة كلاما عن وجوب الحفاظ على الصلاة وكيفية أدائها عند الخوف على مدار آيتين، ليعود القرآن عقب ذلك إلى ما كان فيه من الحديث عن شؤون الزواج والطلاق، ثم ليخرج بعد ذلك إلى الكلام عن موسى وقومه فى نحو صفحة ونصف.

قال سبحانه: "وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلا مَعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)" . ولا يهمنى الآن أن أوضح السر فى ذلك بل يكفى أن نشير إلى أن ذلك سمة من سمات أسلوب القرآن المجيد .

ثم ماذا يقول مستشرقنا الهمام فى قوله تعالى فى "آل عمران" أثناء الحديث عن هزيمة أحد ومسؤولية المسلمين الذين لم يلتزموا بأوامر الرسول المشددة ألا يترك الرماة مكانهم خلف الجيش مهما كان الأمر وأيا ما تكن نتيجة المعركة: "فاعفُ عنهم واستغفِرْ لهم وشاوِرْهم فى الأمر"؟ أيقول إن الرسول عليه السلام قد ضاق باستبداده بالمسلمين واعتراه السأم فأراد أن يغير الوضع قليلا فأمر نفسه بمشاورتهم: على سبيل التنويع حتى يروح عن نفسه قليلا بدلا من جرى الأمر دائما على وتيرة واحدة؟

وعلى كل حال لقد كان الرسول يطبق الشورى فى كل أمور المسلمين. وكان يقول دائما: "أشيروا علىَّ أيها الناس" . وكان يجمع حوله كبار المسلمين ويأخذ رأيهم ويستطلع ما عندهم، فيدلى كل منهم بما يرى، وفى النهاية يتخذون الموقف الذى يَرَوْنه أجدر المواقف بالاتخاذ . حدث هذا قبل بدر حين سأل النبى الأنصار عن استعدادهم أو عدم رغبتهم فى الخروج معه لملاقاة الكفار الذين توافدوا من مكة ونزلوا قرب المدينة يتحدَّوْن المسلمين. وحدث هذا عند تحديد الموضع الإستراتيجى الذى ينبغى أن يتمركز فيه المسلمون قبل بدء

المعركة. وحدث هذا فى غزوة أحد حين شاورهم صلى الله عليه وسلم بخصوص الخروج للاشتباك مع الكفار خارج المدينة أو البقاء بداخلها حتى يدخلها أبو سفيان ورجاله عليهم. . . إلخ، إلخ.

إذن فالشورى مبدأ إسلامى من الناحية الأخلاقية ومن الناحية السياسية جميعا، وكان الرسول المؤَيَّد من السماء أول من التزم به. ومن أقواله فى هذا الصدد: "إذا استشارَ أحدُكم أخاهُ فَلْيُشِرْ عليه"، "لَمّا نزلَتْ "وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ" قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: أمَا إنَّ اللَّهَ ورسولَهُ لغَنيَّانِ عنها، ولكن جعلها اللَّهُ رحمةً لأُمَّتى. فمنِ استشارَ منهُم لم يَعْدَمْ رُشدًا، ومن تركَها لَم يَعْدَمْ غَيًّا"، "ما خاب مَنِ استخار ولا ندِم مَنِ استشار"، "مَنِ استشارهُ أخوهُ المسلمُ فأشارَ عليه بغيرِ رُشْدٍ فقد خانَهُ"، "إذا كانت أمراؤكم خِيَارَكم وكان أغنياؤكم سمحاءَكم وكانت أموركم شورى بينكم فظَهْرُ الأرضُ خيرٌ لكم من بطنها. وإذا كانت أمراؤكم شِرَارَكم وكان أغنياؤكم بخلاءكم وكانت أمورُكم إلى نسائِكم فبطنُ الأرضِ خيرٌ لكم من ظهْرها". وجريا على هذا المبدإ كان الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يتجه إلى أصحابه فى الأمر العام قائلا: "أشيروا علىَّ أيها الناس، أو أيها المسلمون" كما سبق القول.

كذلك لو كان عمر هو الذى أقحم هذه العبارة لغرض فى نفسه فلماذا لم يحاجج عليًّا بها ؟ ثم إن عمر كان يستشير طوال حياته، ولم يبتدع هذا المبدأ الآن فقط لأغراض سياسية كما يزعم كازانوفا . فعن أنس بن مالك "عن النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه أُتِى برجلٍ قد شرِب الخمرَ فضربه بجريدتَيْن نحوَ الأربعين. وفعله أبو بكرٍ، فلمَّا كان عمرُ استشار النَّاسَ فقال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوف: كأخفِّ الحدود. فأمر به عمرُ"، وعن عبد الله ابنه "أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب استشار رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يتصدَّقَ بماله بثَمْغَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تصدَّقْ به. تقسِمُ ثمرَه وتحبِسُ أصلَه لا يُباعُ ولا يُوهَب"، و"استشار عمرُ بنُ الخطابِ الناسَ فى ملاصِ المرأةِ، فقال المُغيرةُ بنُ شُعبةَ: شهدتُ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قضى فيه بغُرَّةٍ: عبدٍ أو أمةٍ. قال: فقال عمرُ: ائتنى بمن يشهد معك. قال: فشهد له محمدُ بنُ مَسْلَمة"، و"عن عمرَ رضى اللهُ عنهُ أنَّه استشارَ الصَّحابةَ فى نفقةِ اللَّقيطِ، فقالوا: فى بيتِ المالِ"، و"عن زيدِ بنِ ثابت أن عمرَ لما استشارَ فى ميراثِ الجَدِّ والإخوةِ قال زيدٌ: وكان رأيى يومئذٍ أن الإخوةَ أحقُّ بميراثِ أخيهم من الجَدّ"، و"جاءَ مائتان من أَهْلِ الشَّامِ إلى عُمَرَ فقالوا: إنَّا قد أَصبنا أموالا وخيلا ورقيقًا نحبُّ أن يكونَ لنا فيها زكاةٌ وطَهورٌ. قالَ: ما فعلَهُ صاحباى قَبلى فأفعَلَهُ. واستشارَ أصحابَ مُحمَّد صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وفيهِم على رضى اللَّهُ عنهُ، فقالَ على: هوَ حسَنٌ إن لم يَكُن جِزيةً راتِبةً يُؤخَذونَ بِها

مِن بعدِكَ"، وعن حميد بن عبد الرحمن "أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضى اللَّهُ عنهُ حينَ أرادَ الرُّجوعَ مِن سَرْغٍ، واستشارَ النَّاسَ، فقَالَت طائفةٌ منهم أبو عُبَيْدةَ بنُ الجرَّاحِ: أمِنَ الموتِ نفرُّ؟ أمَا نحنُ بقَدَرٍ، ولن يُصيبَنا إلا ما كَتَبَ اللَّهُ؟ فقالَ عمرُ: يا أبا عُبَيْدةَ، لو كُنْتَ بوادٍ إحدَى عُدْوَتَيْهِ مُخْصِبةٌ، والأُخرى مُجْدِبَةٌ، أيَّتهما كُنْتَ تَرْعَى؟ قالَ: المُخْصِبةُ. قالَ: فإنَّا إن تقدَّمْنا فبِقَدَرٍ، وإن تأخَّرنا فبقدَرٍ، وفى قَدَرٍ نحنُ" . . . وهكذا .

وفى موضع آخر (ص١٥٣- ١٥٤) يلتقط كازانوفا الخيط من المستشرق الألمانى فيشر، الذى يدعى أن قوله تعالى فى آخر سورة "القارعة": "وما أدراك ما هِيَهْ * نارٌ حامية" قد زِيدَ وأُقْحِمَ فى القرآن بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام على سبيل التفسير لكلمة "هاوية"، إذ كان كثير من الصحابة، إن لم يكن أكثرهم، لا يعرفون معناها، فجاء كازانوفا وقال إنه يتصور أن تكون تلك الإضافة قد وقعت فى عهد عبد الملك بن مروان حين لم يعد هناك صحابة. وإن الإنسان ليستغرب كيف يندفع المستشرقون إلى مثل تلك الأحكام الجزافية. ورَدِّى هو أنهم يعلمون أنهم يكذبون، لكنها الحرب الحضارية، إذ يؤمنون أن الحياة صراع وجلاد: فإما قاتل وإما مقتول. فهم يريدون أن يحطموا الروح المعنوية لدى المسلمين بتشكيكهم فى القرآن، الذى يستمدون منه ثقتهم بربهم ويستلهمونه كفاحهم ضد

هؤلاء المستعمرين المجرمين. كما أنهم يريدون أن يردوا على ما يقوله القرآن من أن اليهود والنصارى عبثوا بكتابهم، فيأتى ردهم بأن القرآن أيضا لم يسلم من العبث. ذلك أن تلك المزاعم لا تدخل عقل عاقل حسبما بينت فى الأمثلة الآنفة، وكما سأبين الآن فى هذا المثال.

ذلك أن عبارة "وما أدراك. . . ؟" هى من العبارات التى تكررت فى القرآن على نحو لافت للنظر فى السور المكية القصيرة شدا لانتباه السامعين إلى ما يدور حوله الحديث، وتفزيعا لهم منه إذا كان شيئًا مخيفا، وتحبيبا لهم فيه إذا كان شيئًا جميلا: "الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)" (الحاقة)، "سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِى ولا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِيمَانًا . . ." (المدَّثِّر)، "فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآَخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)" (المُرْسَلات)، "وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤)

يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)" (الانفطار)، "كلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)" (المطففين)، "كلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)" (المطففين)، "وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)" (الطارق)، "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ

مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)" (البلد)، "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِى حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)" (القدر)، "الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)" (القارعة)، "وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)" (الهمزة).

فما المشكلة إذن فى آيتى سورة "القارعة" بالذات حتى يثير بسببها هذان المستشرقان تلك الضجة الطفولية الفاضية؟ ونحن كثيرا ما نلجأ إلى هذا أو شىء مثل هذا فى كلامنا الاعتيادى حتى مع الكلمات التى لا يجهل أحد معناها، فنقول مثلا لطالب نحذره

مغبة التهاون فى الاستذكار وحضور الدروس: إنك إذا لم تنجح هذا العام فسيكون وبالا عليك. أتعرف معنى "وبال عليك"؟ إنه كذا وكذا وكذا، ونذهب نعدد له المصائب الخطيرة التى سوف تنهال على أم رأسه وتحيل حياته سعيرا لا يطاق. ثم لماذا تنفرد هذه الكلمة بالذات بإضافة تفسيرها إلى النص القرآنى طبقا لتلك الدعوى المتهافتة؟ لو كان الأمر كما يقول المستشرق المتنطع لتحول القرآن إلى كتاب تفسير بإقحام كل شرح فيه فيتضخم ويصير فى حجم تفسير الطبرى، أو ربما وضعوا القرآن جانبا واستبدلوا به هذا التفسير نفسه، فأراحوا واستراحوا! ثم من يا ترى قام بوضع هاتين الآيتين؟ وكيف سكت المسلمون عن هذا العبث؟ أقل شىء كان ينبغى أن يحدث أن تنقسم الأمة فرقتين كبيرتين: فرقةُ "هاوية" وفرقةُ "وما أدراك؟". ألا خيبة الله على كل تافه العقل سقيم الفكر متنطع القول. وبالمناسبة ففى القرآن أسلوب آخر قريب من هذا هو أسلوب "وما يدريك؟"، ولكنه يستخدم فى سياق ولغرض آخر.

ولا يكفّ الرجل عن مزاعمه بأن القرآن قد أضيف إليه بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك عبارة "والشجرة الملعونة فى القرآن"، إذ يحكى أن بعض المفسرين قد فسر "الرؤيا" فى قوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى

أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)" (الإسراء) بأنها هى نفسها الشجرة. ومن ثم قال هو إن عبارة "الشجرة الملعونة فى القرآن" ليست من القرآن، وإنما هى من كلام المفسرين أضيفت إلى الآية فيما بعد، ولم تكن جزءا منها فى الأصل، وبخاصة أن "الشجرة الملعونة فى القرآن" لا يصح عطفها على "الرؤيا". لماذا؟ ربما لأنه يستغرب أن يفصل المفعولُ الثانى لـ"جعلنا" المعطوفَ عن المعطوفِ عليه بما يعنى عنده أن الجملة قد انتهت، فكيف تَعْطف على عنصر من عناصرها شيئًا بعد انتهائها؟ وجَهِل فى غمرة حقده ورغبته الآثمة فى الإساءة إلى القرآن أن مثل هذا التركيب عادى جدا فى العربية. ومثله قوله عز وجل: "أن الله برىء من المشركين ورسوله"، أى أن الله ورسوله بريئان من المشركين. ويمكنك أن تقول أيضا بلا أى حرج أو تلجلج: "جعلت القراءةَ مسلاتى من الأحزانِ والتوترِ ولعبَ الكرة" بمعنى أنك جعلت القراءة ولعب الكرة مسلاتك من الأحزان والتوتر. وعلى نفس الشاكلة أتت الآية الرابعة والسبعون من "الحج": "اللهُ يَصْطَفِى من الملائكة رُسُلا ومِنَ النَّاس"، والآيتان ١٨- ١٩ من سورة "المؤمنون": "فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ"، والآية ١٥ من سورة "الحديد": "فاليَوْمَ لا يُؤْخَذُ منكم فِدْيَةٌ ولا مِنَ الذين كَفَرُوا"، والآية الرابعة من "الطلاق": "وَاللائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ

ارْتَبْتُمْ فَعدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائى لَمْ يَحِضْنَ". وأشد من ذلك الآيات ٥- ٨ من سورة "المؤمنون": "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ". وأشد وأشد قوله تعالى من "آل عمران": "إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)" حيث عطف "رسولا" على ما يفصل بينه وبينها ثلاث آيات كاملات. وهناك تركيب آخر قريب من هذا يأتى فيه النعت بعد تمام الجملة منفصلا عن المنعوت كما فى الآية الرابعة عشرة من سورة "الأنعام": "قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ". وثم تركيب آخر يتوسط فيه بين الحال وصاحبه

تسع عشرة كلمة: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)" (الروم) . وهذا كله متكرر فى القرآن الكريم. فلِمَ يتساخف كازانوفا كل ذلك التساخف؟ فليكن الإنسان متعصبا وحقودا كما يشاء، لكن عليه أن يكون عاقلا، أو على الأقل: متعاقلا، وإلا فهل هناك عقل أو تعاقل عند مستشرق يخطِّئ القرآن ويزعم بشأنه المزاعم الوضيعة؟

ثم لو كانت عبارة "الشجرة الملعونة فى القرآن" هى شرحا لمعنى "الرؤيا" لحذف مُضِيفُها إلى النص القرآنى الواو التى تتقدمها . أليس كذلك يا فالح؟ وهذا إن كانت "الرؤيا" هى الشجرة. لكنها ليست إياها، بل الرؤيا هى ما رآه النبى فى رحلته الإعجازية إلى بيت المقدس، بينما الشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم. وقد كانت كلتاهما فتنة للناس، إذ كان تعليق المشركين على رحلة الإسراء وما شاهده عليه السلام فيها أن هذا أمر مستحيل، وإلا فكيف يمكنه قطع هذه المسافة ذهابا وجيئة فى سويعات بينما هى تأخذ من القوافل شهرين كاملين؟ كما أن المشركين حين سمعوا بشجرة الزقوم اعترضوا وتهكموا قائلين: كيف تنبت شجرة فى النار، والنار إنما تحرق الشجر وتقضى عليه؟ وكانت نتيجة

الأمرين مزيدا من الكفر والإنكار. فما وجه اعتراض هذا المستشرق؟ وتبقى عبارة "فى القرآن"، التى يقول إن معناها: "فى الكتاب المسمى هكذا"، ومن ثم لا يمكن أن تكون صادرة إلا عن مفسر. وهو اعتراض جاهل متغشمر لا معنى له، بل لا أدرى وجه الاعتراض فيه أصلا.

وهو يرى أن الصواب فى قوله تعالى من سورة "الأعراف": "قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا" هو أن نقول: "فى أمم قد دخلت من قبلكم" وليس "قد خلت" على اعتبار قوله عقب ذلك: "كلما دخلت أمة". يقصد أن الكلام هنا عن الدخول فى النار لا عن الخلوّ (أى السبق الزمنى) من قبل. أما ما هو موجود فى المصحف الذى بين أيدينا فقد تأثر النساخ فيه، حسب زعمه، بقوله تعالى فى الآية ٢٥ من سورة "فُصّلَتْ"، التى تقول: "وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)" (ص١٦٥). وهو تعسف غبى، إذ المستشرق إنما يعترض لمجرد الاعتراض، وإلا فما وجه الخطإ فى أن يقال لهم: ادخلوا فى أمم قد سبقتكم فى الزمن، بمعنى أنكم صرتم مثلها فى استحقاقكم النار فى الآخرة. هل هناك مانع من هذا؟ وحتى لو افترضنا

أننا وجدنا لكلامه وجها فالسؤال يظل قائما: ما وجه الاعتراض على ما قاله القرآن؟ وهل هذا الأعجمى يفهم العربية أفضل من العرب أصحابها ؟ أَوَقَدْ هان القرآن على العرب إلى هذا الحد فصار كل فَسْلٍ منهم يمد يده متى حلا له ذلك ويغير فيه على النحو الذى يتراءى له وهو سكران؟ وهل كان المسلمون ليصمتوا على هذا التساخف؟ أرأيتم كيف أن كازانوفا قد أخذ على عاتقه إثارة الرِّيَب فى القرآن، والسلام؟ وأخيرا فالمعنى فى سورة "الأعراف" هو نفس المعنى فى سورة "فُصِّلَتْ"، ولهذا جاءت العبارتان على نفس الوضع. فجملة "ادخلوا فى أمم" معناها "حق عليهم القول فى أمم"، كل ما هنالك أن الأولى تستخدم ضمير المخاطب، والثانية ضمير الغائب. أما "الدخول فى أمم قد خلت" فهو هو نفسه "حق عليهم القول فى أمم قد خلت". أى صار حكمهم فى استحقاق التعذيب هو ذات الحكم الذى استحقته تلك الأمم السابقة. وهو نفسه ما تقوله الآية رقم ١٩ من سورة "الأحقاف": "أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ". والأمم البشرية إذا ذُكِرَتْ فى القرآن فهى الأمم الماضية دائما. وكفى الله المؤمنين شر تنطع المستشرقين!

وهذا الجاهل الذى يقحم نفسه دائما فى مآزق لا يسد فيها مَسَدًّا يخطّئ قوله تعالى فى الآية التسعين من سورة "الواقعة": "فسلامٌ لكَ مِنْ أصحابِ اليمين". ولأن هذا عنده خطأ، ولأن النبى قد قال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان" فقد أكلته يده تحرقا إلى تغيير هذا المنكر، وبيده، إذ هو مستشرق ينتمى إلى أمة قوية يدها طرشاء تضرب وتحطم ولا تبالى، فهو يستطيع إذن أن يستخدم يده لا لسانه ولا قلبه لأنه لا يقبل أن يكون من ضعاف الإيمان، فاقترح أن تكون "فسلام لكلٍّ من أصحاب اليمين"، إلا أنه سارع فقال إنه رأى ذلك خطأ، وإن لم يوضح ما وجه الخطإ فيه. والسبب فى هذه الخوتة كلها أنه فهم من قوله تعالى: "فسلام لك من أصحاب اليمين" أن السلام صادر من أصحاب اليمين، وإن وقف أمام كلمة "لك" حائرا لا يفهم معناها، بينما يقول القرآن الكريم فى نفس السورة عن السابقين إنهم "لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)"، وواضح أنهم يتلقَّوْن السلام ولا يقولونه، ومن ثم ينبغى، كما يقول، أن يعامَل أصحاب اليمين بنفس الطريقة، أى يتلقَّوْا هم أيضا السلام لا أن يقولوه لغيرهم.

لكن مَنْ ذا العبقرى الذى أفهمه أن قوله تعالى: "فسلامٌ لك من أصحاب اليمين" صادر عن أصحاب اليمين؟ إن معنى الآية هو "فسلام لك (بصفتك) من أصحاب اليمين"، و"الكاف" فى "لك" تعود على صاحب اليمين الذى يُحَيَّا بالسلام لا على شخص آخر وقف أمامه كازانوفا حائرا بائرا لا يدرى من هو. والنص كاملا يقول: "فأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلامٌ لك من أصحاب اليمين"، ومعنى الكلام: "وأما إن كان من أصحاب اليمين فيقال له: سلام لك بصفتك من أصحاب اليمين". وأنا طول عمرى لا أفهمها إلا هكذا، فهى من الوضوح بمكان. وهكذا أيضا يفسرها المفسرون. والسياق الذى أتت فيه الآية يدل على هذا دون أدنى جدال أو تلجلج: "فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)". فكل طائفة من أصحاب الجنة، كما نرى، تُذْكَر فى الآية الأولى ثم تُتْبَع فى الآية التى تليها بما ستلقاه فى الجنة من تكريم وإنعام، أو فى النار من مهانة وعذاب.

ولا يتوقف المستشرق هنا بل يستمر فى تحطيم التحف النفيسة بأظلافه الغبية الجاهلة قائلا إن قوله عز شأنه فى سورة "القَصَص": "إن الذى فَرَضَ عليك القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ"

ينبغى أن يُقْرَأَ على النحو التالى: "إن الذى فرض عليك القرآنَ لا رادُّكَ إلى معاد" . ذلك أن رد الشخص إلى معاد معناه إعادته إلى نقطة الانطلاق، وهى هنا نقطة الصفر بالنسبة للرسول. أى أن الآية على الوضع الذى هى عليه فى المصحف معناها أنه سوف يرده إلى نقطة الصفر مفشلا له كل عمله. أما "لا رادك إلى معاد" فتنفى إمكان حدوث هذا الإفشال والفشل. ولقد تغيا مفسدو النص أن يدعموا عبد الله بن سبإ وأصحاب ابن سبإ القائلين بالرجعة كما يقول (ص١٥٦– ١٥٧) . وهو طبعا قلبه رهيف ولا يحب أن يضيع عمل النبى محمد سدى، فلهذا آلمه أن يعبث أحد بالنص على هذا النحو، وعمل بكل ما فى وسعه على إعادة النص إلى ما كان.

وهو يرفض القول بأن هذا وعد من الله بأن يرده إلى مكة فاتحا منتصرا لأن الآية لا تدل على هذا . ولكن كيف؟ ألم يقل إن "المعاد" هو العودة إلى نقطة الانطلاق؟ أليست مكة هى نقطة انطلاق محمد ولادةً ونبوةً؟ إذن فحتى على تفسيره فإن ما قاله المفسرون هنا صحيح، وليس فيه أدنى شائبة. أما "لا رادك إلى معاد" فتركيب غير عربى، إذ لا نقول مثلا: "محمد لا ذكى، والرجل لا آكِلُ التفاح، وسعيد لا ضارِبُك" . هذا كلام الخواجات لا العرب، فـ"لا" لا تدخل على الأخبار على هذا النحو، وإنما يمكننا أن نقول مثلا: "سعيد

عالم لا جاهل، أو أحمد لا غبى ولا جاهل، أو لا عالمَ عندنا سوى عليٍّ". أما "إن الذى فرض عليك القرآن لا رادُّك إلى معاد" فكلامُ أعاجمَ حُمْق.

حتى الفاتحة لم تسلم من عقارب الرجل. فهى، حسبما يزعم، سورة مشكوك فيها، وهى مبنية على نفس نسق الصلاة النصرانية المشهورة: "أبانا الذى فى السماوات"، إذ هى سبع آيات، وهو ذات العدد المكوَّنة منه الصلاة المذكورة. كما أن الابتهال إلى الله بـ"إياك نعبد وإياك نستعين" هو ابتهال غريب على المسلم. ومن هنا يرى أنها مقدمة كمقدمات الكتب أضافها بعض من راجعوا القرآن حتى يكون لكلام الله فى سورة "الحِجْر" عن "السَّبْع المثانى" التى آتاها الله محمدا معنى، وإلا لكان هذا الكلام غير مفهوم لأنه لا توجد سَبْعٌ من المثانى فيه، أما مع وجود "الفاتحة" بآياتها (أو بمثانيها) السبع فلا مشكلة إذن (ص١٥٨- ١٥٩).

وأول شىء نقف أمامه هو العدد سبعة. وها هو ذا نص الصلاة النصرانية المذكورة كما جاء فى إنجيل متى: "أَبَانَا الَّذِى فِى السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. ١٠لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِى السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. ١١خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. ١٢وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا. ١٣وَلاَ تُدْخِلْنَا فِى تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ. لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَالْقُوَّةَ، وَالْمَجْدَ، إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ". وهذا هو مرة أخرى حسبما ورد فى إنجيل

لوقا: "أَبَانَا الَّذِى فِى السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِى السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. ٣خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا كُلَّ يَوْمٍ، ٤وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا لأَنَّنَا نَحْنُ أَيْضًا نَغْفِرُ لِكُلِّ مَنْ يُذْنِبُ إِلَيْنَا، وَلاَ تُدْخِلْنَا فِى تَجْرِبَةٍ لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ". وهذا هو مرة ثالثة حسبما هو موجود على أحد المواقع النصرانية الكنسية: "أبانا الذى فى السموات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا الذى للغد أعطنا اليوم. واغفر لنا ما علينا كما نحن أيضا نغفر لمن لنا عليه. ولا تدخلنا فى تجربة. لكن نجنا من الشرير بالمسيح يسوع ربنا. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين". فأين العدد سبعة هنا؟ إنها فى إنجيل متى أقل من خمس آيات بينما هى فى إنجيل لوقا أقل من ثلاث. هذه واحدة. وهناك نصوص أخرى لهذه الصلاة توجد فيها أشياء غير مذكورة فى هذين النصين. وها هو ذا واحد آخر منها كما وجدته فى نفس الموقع المذكور آنفا: "أبانا الذى فى السماوات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا الذى للغد أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا فى تجربة. لكن نجنا من الشرير. بالمسيح يسوع ربنا لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين". كما أن هذا الابتهال النصرانى لا يرتَّل فى صلاة بل هو وحده صلاة على عكس الفاتحة التى ترتل فى الصلوات لكنها هى نفسها ليست بصلاة.

الشيء الثانى أن المسلمين فى "الفاتحة" يتوجهون إلى ربهم الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا بينما النصارى يعبدون المسيح بوصفه ربهم. كذلك فالفاتحة تبدأ بالحمد وتصف الله برب العالمين، وبالرحمن الرحيم، وبمالك يوم الدين، وتطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم. . . إلخ، وليس فى الصلاة النصرانية قط شيء من هذا. وهناك فى الفاتحة البسملة، وليس فى الصلاة النصرانية بسملة. وعلى العكس من صلاة النصارى ليس هناك فى "الفاتحة" خبز ولا جبن ولا كلام عن أى طعام أو شراب، ولا إشارة إلى الشرير، أى الشيطان، ولا كلام عن التجارب أى الامتحان والتعريض للفتنة، ولا عن الغفران لا لنا من الله ولا للناس منا. ثم هل النصارى يكررون هذا الدعاء يوميا فى مواقيت معينة كما نقرأ نحن "الفاتحة" فى كل ركعة من ركعات الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، ودعنا من النوافل؟ طبعا لا. وهل يقرأون إصحاحا آخر بعده أو عددا من جمل أى إصحاح كما نصنع نحن بعد قراءة الفاتحة فى الركعتين الأوليين من كل صلاة؟ أبدا.

كما أن هناك فرقا حادا آخر بل أشد حدة بين القرآن وبين هذه الصلاة، فالمصلى النصرانى يدعو ربه أن يغفر له كما يغفر النصرانى لمن أخطأوا إليه. أى أنه يضع نفسه نموذجا أمام الله ليحتذيه الله. أما فى القرآن فيقول ربنا لعباده فى سورة "النور": "وَلا يَأْتَلِ أُولُو

الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)". وما يقوله القرآن هو الذى ينبغى أن يكون، فلله المثل الأعلى فى السماوات والأرض، والبشر هم الذين يحتذون الله (فى نطاقهم المحدود بطبيعة الحال) لا العكس. وإضافة إلى ذلك فالمسلمون لا ينادون ربهم بـ"أبانا"، فضلا عن أن يحصروه فى السماوات، بل هو عندنا رب السماء والأرض، وهو أكبر من الأمكنة والأزمنة جميعها لأنه خالقها. فكيف تحتويه سماء أو أرض؟ بل كيف يحتويه الكون نفسه؟ إذن فلم هذا الكلام البزرميط الذى يعرف المستشرق الخبيث أنه كلام بزرميط، ومع هذا يصر على ترديده؟ السبب، كما قلت وسأظل أقول، هو إثارة الشك فى القرآن ووضع المسلمين على صفيح ساخن طوال الوقت وإيهامهم أن قرآنهم قد جالت فيه يد العبث مثلما يقولون عن الكتاب المقدس.

ثم ما الغرابة فى أن يقول المسلم فى ابتهاله إلى ربه: "إياك نعبد وإياك نستعين"؟ ترى ماذا يقول له؟ فليقترح علينا المسيو كازانوفا بعبقريته فى الهلس والبكش ابتهالا آخر يرضى عنه ويرى أنه أجدر بأن يأخذ موضعه فى "الفاتحة" والصلاة أو فى مقدمة الكتب. وإذا لم تكن "الفاتحة" قرآنا وكانت مخترعة ومقحمة على القرآن بعد موت الرسول بزمن فكيف يا

ترى كان المسلمون يصلون؟ أكانوا يقولون مثلا: "اللهم سامحنا لأنا لانستطيع قراءة شيء، فالعابثون لم يأت زمانهم بعد كي يخترعوا لنا "فاتحة" نقرؤها في الصلاة. ومسيو كازانوفا شاهد على هذا .أليس كذلك يا مسيو كازانوفا ؟ آمين" ثم يركعون؟ لكن الصلاة بدون "فاتحة" لا تصح ولا تُقْبَل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بأمِّ القرآنِ فهي خداجٌ، ثلاثًا، غيرُ تمامٍ. فقيلَ لأبي هريرةَ: إنَّا نكونُ وراءَ الإمامِ. فقال: اقرأ بها في نفسك، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: قال اللهُ تعالى: قسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفينِ، ولعبدي ما سألَ. فإذا قال العبدُ: "الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ" قال اللهُ تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" قال اللهُ تعالى: أثنى على عبدي. وإذا قال: "مَالك يَوْمِ الدِّينِ" قالَ: مجَّدني عبدي. فإذا قال: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" قال: هذا بيني وبينَ عبدي، ولعبدي ما سألَ. فإذا قال: اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ" قال: هذا لعبدي. ولعبدي ما سأل".

يا لسخف العقلية الاستشراقية! لا أقصد بطبيعة الحال جميع المستشرقين بل غالبهم. ثم متى تم ذلك؟ ومن فعله؟ وكيف صمت المسلمون في كل أقطار الأرض على تدنيس

كتابهم على هذا النحو؟ ثم بعد أن جالت يد العبث فى القرآن ووُضِعَت "الفاتحة" كيف عرف سائر المسلمين بها ؟ إن المصاحف التى كانت فى أيديهم والقرآن الذى كان محفوظا فى رؤوسهم لم تكن فيها ولا فيه، طبقا لهذا التنطع، فاتحة. فكيف عرفوا بأن فاتحة جَدَّتْ وأن عليهم من الآن فصاعدا أن يدخلوها فى جميع صلواتهم؟ لا بد أن يكون هناك منشور يعمم على المسلمين فى كل آفاق الأرض. فأين هذا المنشور؟ وكيف كانت ردة فعل الناس تجاهه؟ وأين الكتب التى ألفت دفاعا عن هذا الأمر، والكتب التى ألفت هجوما عليه؟ وأين حملات التكفير التى نشأت وتبودلت بين الفريقين بناء على هذا؟ وأعجب شىء أن المستشرق يقول إن مؤلف "الفاتحة" قد جرى على نموذج المقدمات التى فى أول الكتب لا العكس. أى أنه يقلب الوضع رأسا على عقب، وبدلا من القول بأن مؤلفى الكتب يقلدون "الفاتحة" من خلال حمد الله فى مقدماتهم على ما وفقهم إليه من تأليف كتبهم نراه يقول إن مؤلف "الفاتحة" هو الذى قلد مقدمات الكتب. لماذا يا شيخنا المستشرق؟ لأن تقليد "النص المقدس" من شأنه أن "يدنسه" . ولما كان المسلمون يتحرجون أبلغ التحرج وأشده وأعنفه وأصلبه وأقواه من تدنيس قرآنهم كان من غير المعقول أن يكتبوا مقدمات كتبهم على غرار "فاتحة الكتاب" . أى أنهم، على هذا التوجيه الاستشراقى اللوذعى، لم يَرْضَوْا أن يدنسوا القرآن باتخاذه نموذجا لهم يحتذونه، لكن ضمائرهم الحرجة لم تجد شيئا يعاب فى

العبث به على هذا النحو الشنيع . فهم يتعففون عن سرقة القشة، ويبتلعون الجمل بما حمل ! وخيبة الله على كل رَذْلٍ سمج !

ولكى يعرف القارئ مدى علم هذا المستشرق بالنحو العربى، الذى يريد أن يوهمنا أنه به جِدُّ خبير وفيه جِدُّ ضليع، أذكر له مثلا أنه يرى اسم الفاعل من "هَدَى يَهْدِى" هو "المُهْدِى"، وبالمثل قرأ عدد من المستشرقين كلمة "المَهْدِىّ" (المهدى المنتظر) على أنها "المُهْدِى" على اعتبار أنه يَهْدِى الناس من الضلال ولا يُهْدَى هو (ص٦٦– ٦٧)، ووافقهم مستشرقنا، ولم يجد فيما قالوه أى خطإ . وفاته وفاتهم أن "المُهْدِى" هو اسم الفاعل من "أَهْدَى يُهْدِى"، أى من الهدِيَّة لا من الهداية والهُدَى، فهو مَنْ يُقَدِّم الهدية لا مَنْ يقوم بالهداية، وأن المَهْدِىّ معناه أن الله هداه ليتولى هو بعد ذلك هداية الناس بهذه الهداية التى هداه الله إياها . أما اسم الفاعل من "هَدَى يَهْدِى" فهو "الهادى" . و"الهادى"، كما نعرف، اسم من أسماء الله الحسنى . فإذا كان يجهل معلومة بدائية كهذه فكيف تسول له نفسه الدخول فى هذا المأزق، ويفتى كأنه ابن بَجْدَتها ؟

وهناك مخزاة أخرى من مخازى الرجل تدل على ضعف معرفته بالعربية، إذ توقف أمام قوله تعالى فى سورة "الأنبياء" : "يوم نَطْوِى السماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ للكُتُب" ليقرِّع المفسرين

ويسمعهم قارص الكلم ويتهمهم بأنهم يزعمون أنهم لا يستعصى عليهم تفسير أى شىء فى القرآن، ومن ثم يلجأون إلى أساليب فى التفسير مضحكة. وقد أورد ما قاله المفسرون من أن "السجل" صحيفة أو اسم علم على ملاك أو اسم علم على أحد كتاب الوحى، ولم يعجبه شىء من كلامهم، ثم لم يسكت عند هذا الحد بل انطلق يفتى قائلا إنه يتصور أن العبارة كانت فى الأصل: "يوم نطوى السماء كطى الكتب للسجل"، لكنْ لأن المفسرين ظنوا أن كلمة "السجل" اسم علم قالوا: إن السجل هو الذى يطوى الكتب لا العكس، وكانت الخطوة الثانية أن عبثت بها الأيدى فقدمت وأخرت حتى صارت: "كَطَىِّ للسجلّ الكتب"، ثم جالت يد التصحيح فى العبارة فجعلتها: "كطى السجل للكتب" ناقلة اللام من "السجل" إلى "الكتب"، فكان عندنا العبارة الموجودة فى المصحف (ص١٠٢- ١٠٣).

والحق أن هذا كلام لا يدور إلا فى عقول الحشاشين لأنه حتى لو كان محمد هو مؤلف القرآن فلن يقول كلاما لا بهذا التركيب المتهافت ولا بهذا المعنى المضطرب. فالعربية لغته يتكلمها بالسليقة كما كان يتكلمها الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون فى عصره، ولا يعقل أن يأتى هذا الأعجمى الممرور ليصلح له لغته بعد كل تلك القرون المتطاولة. خيبة الله على كل

غبى مغرور! ومعروف أن من معانى "السِّجِلّ": الكاتب، سواء الكاتب البشرى هنا على الأرض أو الملَك الكاتب فى السماء. ولابن حجاج فى رثاء عيسى بن مروان الكاتب:

مِثْلَ السجلِّ كتابُه يبقى إلى يوم النشور

ولابن سناء المُلْك فى الغَزَل:

أَساريرُ خدِّك خطُّ السِّجِلّ بالعَهْدِ، والخالُ فيه العَلاَمَهْ

ولابن حمدون من كتابه: "التذكرة الحمدونية": "والدهر يطوى محاسنَه طَيَّ السجلِّ كتابَه". وفى البيت التالى يستعمل الشاعر العُمَانىّ موسى بن حسين بن شوال (ق١٨م) الكلمة مرةً بمعنى الكاتب، ومرةً بمعنى الصحيفة:

وكم للضلالة من خيمةٍ طواها كطَى السِّجِلِّ السِّجِلا

ومعروف أن الكاتب حين يفرغ من عمله يطوى الكتاب أو الدفتر الذى كان يكتب فيه. والمعنى أن لكل شىء آخِرًا، ولسوف يأتى يوم على الكون يصل فيه الكون إلى خط النهاية، ويَطْوِى الله السماوات ساعتئذ كما يطوِى الكاتب دفاتره. فما المشكلة؟ ولقد عبر الرسول عن معنى قريب من هذا بقوله: "تقعدُ الملائكةُ يومَ الجمعةِ على أبوابِ المساجدِ معهم الصُّحُفُ يكتبون الناسَ. فإذا خرج الإمامُ طُوِيَت الصُّحُفُ". وأقرب منه لما نحن فيه

قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا خرَجت أوّلُ الآيات طُرِحَت الأقلامُ وطُوِيَت الصحفُ، وخلَصت الحَفَظةُ، وشَهِدَت الأجسادُ على الأعمالِ" . وبَعْد الطَّيِّ يأتى النَّشْر: نَشْر الصحف التى طويت لمحاسبة الناس على ما هو مُسَجَّل لهم أو عليهم فيها مهما كانت ضآلته: "يُحْشَرُ الناسُ عُراةً حُفاةً. فقالتْ أم سَلَمة: يا رسولَ الله، واسَوْأتاهُ! ينظُرُ بعضُنا إلى بعضٍ؟ فقال: شُغِل الناسُ. قلتُ: ما شَغَلَهم؟ قال: نَشْرُ الصحفِ فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيلُ الخردلِ" .

ومرة أخرى لا يسكت كازانوفا هنا بل يمضى فيقول إن كلمة "السجل" تشبه الكلمة اللاتينية المخصصة لهذا المعنى. وأغلب الظن أنه يريد أن يقول إن هذه اللفظة القرآنية مستعارة من اللاتينية على عادة المستشرقين فى محاولة الإساءة إلى العرب والإسلام بكل سبيل، ولكن دون أن يكون فى يده أى إثبات لما يزعم. ومرة ثالثة لا يسكت عند هذا الحد بل يقول إن هذه العبارة تذكرنا بكلمة "دَرْج" (أىْ ورقة) فى الآية الرابعة من الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر "إشَعْياء" من العهد القديم، وفى الآية الرابعة عشرة من الإصحاح السادس فى سفر "رؤيا يوحنا اللاهوتى" . يلمح إلى اتهام الرسول عليه السلام بأنه استمد هذه الصورة من ذلك الكتاب، وكأن الرسول كانت عنده ترجمة الكتاب المقدس بكل أسفاره يراجعه دائما

ويستلهمه ما يريد أن يقوله، فضلا عن أن السياق هنا غير السياق هناك، والتفاصيل غير التفاصيل كما سوف نرى فى النصين المذكورين على الترتيب. وهذا أولهما:

"١اقْتَرِبُوا أَيُّهَا الأُمَمُ لِتَسْمَعُوا، وَأَيُّهَا الشُّعُوبُ اصْغَوْا. لِتَسْمَعِ الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. الْمَسْكُونَةُ وَكُلُّ نَتَائِجِهَا. ٢لأَنَّ لِلرَّبِّ سَخَطًا عَلَى كُلِّ الأُمَمِ، وَحُمُوًّا عَلَى كُلِّ جَيْشِهِمْ. قَدْ حَرَّمَهُمْ، دَفَعَهُمْ إِلَى الذَّبْحِ. ٣فَقَتْلاَهُمْ تُطْرَحُ، وَجِيَفُهُمْ تَصْعَدُ نَتَانَتُهَا، وَتَسِيلُ الْجِبَالُ بِدِمَائِهِمْ. ٤وَيَفْنَى كُلُّ جُنْدِ السَّمَاوَاتِ، وَتَلْتَفُّ السَّمَاوَاتُ كَدَرْجٍ، وَكُلُّ جُنْدِهَا يَنْتَثِرُ كَانْتِثَارِ الْوَرَقِ مِنَ الْكَرْمَةِ وَالسُّقَاطِ مِنَ التِّينَةِ.

٥لأَنَّهُ قَدْ رَوِيَ فِي السَّمَاوَاتِ سَيْفِي. هُوَذَا عَلَى أَدُومَ يَنْزِلُ، وَعَلَى شَعْبِ حَرَّمْتُهُ لِلدَّيْنُونَةِ. ٦لِلرَّبِّ سَيْفٌ قَدِ امْتَلأَ دَمًا، اطَّلَى بِشَحْمٍ، بِدَمِ خِرَافٍ وَتُيُوسٍ، بِشَحْمِ كُلَى كِبَاشٍ. لأَنَّ لِلرَّبِّ ذَبِيحَةً فِي بُصْرَةَ وَذَبْحًا عَظِيمًا فِي أَرْضِ أَدُومَ. ٧وَيَسْقُطُ الْبَقَرُ الْوَحْشِيُّ مَعَهَا وَالْعُجُولُ مَعَ الثِّيرَانِ، وَتَرْوَى أَرْضُهُمْ مِنَ الدَّمِ، وَتُرَابُهُمْ مِنَ الشَّحْمِ يُسَمَّنُ. ٨لأَنَّ لِلرَّبِّ يَوْمَ انْتِقَامٍ، سَنَةَ جَزَاءٍ مِنْ أَجْلِ دَعْوَى صِهْيَوْنَ.

٩وَتَتَحَوَّلُ أَنْهَارُهَا زِفْتًا، وَتُرَابُهَا كِبْرِيتًا، وَتَصِيرُ أَرْضُهَا زِفْتًا مُشْتَعِلاً. ١٠لَيْلاً وَنَهَارًا لاَ تَنْطَفِئُ. إِلَى الأَبَدِ يَصْعَدُ دُخَانُهَا. مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ تُخْرَبُ. إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ لاَ يَكُونُ مَنْ

يَجْتَازُ فِيهَا . [١١]وَيَرِثُهَا الْقُوقُ وَالْقُنْفُذُ، وَالْكُرْكِى وَالْغُرَابُ يَسْكُنَانِ فِيهَا، وَيُمَدُّ عَلَيْهَا خَيْطُ الْخَرَابِ وَمِطْمَارُ الْخَلاَءِ . [١٢]أَشْرَافُهَا لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَدْعُونَهُ لِلْمُلْكِ، وَكُلُّ رُؤَسَائِهَا يَكُونُونَ عَدَمًا . [١٣]وَيَطْلَعُ فِى قُصُورِهَا الشَّوْكُ. الْقَرِيصُ وَالْعَوْسَجُ فِى حُصُونِهَا . فَتَكُونُ مَسْكَنًا لِلذِّئَابِ وَدَارًا لِبَنَاتِ النَّعَامِ. [١٤]وَتُلاَقِى وُحُوشُ الْقَفْرِ بَنَاتِ آوَى، وَمَعْزُ الْوَحْشِ يَدْعُو صَاحِبَهُ. هُنَاكَ يَسْتَقِرُّ اللَّيْلُ وَيَجِدُ لِنَفْسِهِ مَحَلا . [١٥]هُنَاكَ تَحْجِرُ النَّكَّازَةُ وَتَبِيضُ وَتُفْرِخُ وَتُرَبِّى تَحْتَ ظِلِّهَا . وَهُنَاكَ تَجْتَمِعُ الشَّوَاهِينُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ" .

وفى هذا النص خيالاتٌ سودٌ وأمانىُّ شيطانيةٌ يمليها بغض سام للبشرية جميعا وأمل فى انتقام الله منهم كلهم لا يغادر صغيرا أو كبيرا، ومعهم الحيوان الأعجم، بل وجند السماء أيضا (الملائكة؟)، وهذا كله بسبب بنى إسرائيل وظلم الناس المزعوم لهم، إذ الواقع أن بنى إسرائيل لم يسكنوا مكانا إلا أَلَّبُوا عليهم مَنْ حولهم لأنانيتهم وغرورهم وكبرهم وغطرستهم والتواء نفوسهم وصلابة رقابهم وكراهيتهم للناس من حولهم وتمنيهم الشر لهم وطبخهم المؤامرات ضدهم. فأين هذا من كلام القرآن عن نهاية العالم يوم القيامة وطَىّ كل شىء لإعادة تركيبه من جديد لا تدميره وتحويله زفتا وقطرانا وكبريتا ونارا تتلظى تحرق كل إنسان وكل حيوان وكل شىء فى الدنيا كما فى نص إشعياء، كل ذلك من أجل عيون أبناء

صهيون؟ أما النص الثانى فلسوف أكتفى بإيراد الصورة المشار إليها، وهى: "[١٤]وَالسَّمَاءُ انْفَلَقَتْ كَدَرْجٍ مُلْتَفّ". والصورة، كما يرى القارئ، غير مفهومة، إذ كيف تنفلق السماء مثل الدرج الملتف؟

ولا يكتفى المستشرق اللوذعى بهذا أيضا بل يحيلنا كذلك إلى كتب عِرَافة مشهورة عند الرومان القدماء كانوا يلجأون إليها فى اللحظات التاريخية الحرجة والمصائب العظام لتقديم شىء للآلهة كى يتقوا شر غضبهم. وهذه الكتب كانت قد احترقت قبل المسيح ببضع عشرات من الأعوام، فقاموا بجمع بعض القطع منها من هنا وهناك من البلاد المختلفة مختلطة بما ليس منها. فانظر بالله عليك أيها القارئ إلى المدى الذى بلغه تساخف كازانوفا. ما لمحمد عليه السلام المحارب العنيف للعرافة والكهانة وما لكتب العرافة الرومانية الوثنية؟ وما صلته بها؟ وكيف خطر لهذا الشيطان أن يربط بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هذا ليس علما بل شغل أباليس. أيصح أن يترك كل ما فى الإسلام من كنوز أخلاقية وعقيدية وفكرية عظيمة وأسس حضارية كريمة ويذهب يُجْلِب على الحقائق بغية إطفاء نورها الوهاج فيزعم أن كل ما أتى محمد من أجله هو التبشير بنهاية العالم، وأنه حتى فى هذا كان واهما مخدوعا يظن أنه نبى حقيقى، وما هو من النبوة الحقيقية فى قُلٍّ أو كُثْرٍ؟

وإلى القارئ الترجمة الإنجليزية للنص الذى وردت خلاله صورة السماوات المطوية، وقد تعبتُ تعبا شديدا حتى وضعتُ يدى عليه، ولم أكن سمعت به ولا بالكتب التى ورد فيها من قبل ولا أظننى كنت لأسمع بها من بعد، ولولا أن كازانوفا قد أشار إلى تلك الكتب ولولا أن المشباك (الإنترنت) تحت يدى يخدمنى كجن سليمان دون أن ينتظر منى جزاءً أو شُكُورًا ما استطعت الوصول إليه بل ولا سمعت به حتى لو انطبقت السماء على الأرض. فكيف وصلت يدُ محمد، الذى ليس نبيا حسبما يراه كازانوفا، والأمى المنتمى إلى أمة أمية لا تعرف الكتب ولا المكتبات، إلى مثل تلك النصوص التى كانت بعيدة عن متناوله بُعْدَ المَجَرَّة العليا عنا ؟ وأخيرا يبدو أن كازانوفا قد قصد النبوءات (لا الكتب) السيبيلية، تلك النبوءات التى يُظَنّ أنها ذات أصل يهودى- نصرانى، والتى يوجد فيها النص المقصود . وفى هذا النص مَشَابِهُ لما ورد فى فواتح بعض السور المكية كـ"الانفطار والتكوير والنبأ والواقعة والطور" مثلا مما أنبأنا القرآن أنه سوف يقع يوم القيامة من تفكك الكون وتناثر عناصره قبل إعادة سبكه من جديد . ولعله بقية من الوحى فى الكتب السماوية السابقة لم يضيعها القوم فيما ضيعوا:

"But when the threatenings of the great king come near to fulfilment, and a fiery power comes through the deep to land and burns up Belial and all men of pride, even all that put their trust in him: then shall the world be ruled beneath a woman's hand, and obey her in all things.

And when a widow rules over the whole world, and casts gold and silver into the deep sea with the bronze and iron of short-lived mortals, then shall all the elements of the world be as one widowed, when God that dwelleth in the heavens shall roll up the sky as a book is rolled up: and the whole firmament with its many signs shall fall upon the earth and the sea; and then shall flow a ceaseless torrent of liquid fire, and shall burn up the earth and burn up the sea, and melt down the firmament of heaven, the days and the very creation, fusing them into one clear mass".

وهذه ترجمة أخرى للنص:

But when the threatenings of the mighty God

"Shall draw near, and a flaming power shall come

By billow to the earth, it shall consume

Both Beliar and all the haughty men

90 Who put their trust in him. And thereupon

Shall the whole world be governed by the hands

Of a woman4 and obedient everywhere.

Then when a widow shall o'er all the world

Gain the rule, and cast in the mighty sea

95 Both gold and silver, also brass and iron

Of short lived men into the deep shall cast,
Then all the elements shall be bereft
Of order, when the God who dwells on high
Shall roll the heaven, even as a scroll is rolled;
100 And to the mighty earth and sea shall fall
The entire multiform sky; and there shall flow
A tireless cataract of raging fire,
And it shall burn the land, and burn the sea,
And heavenly sky, and night, and day, and melt
105 Creation itself together"

ومما زعم كازانوفا أيضا أنه حُذِف من القرآن ما يسمى بـ"آيتى الغرانيق"، إذ يدعى مِثْلَ كثير من المستشرقين أنهما كانتا تشكلان جزءا أصيلا من القرآن ثم أزيلتا . وقد بلغ الأمر بريجى بلاشير أَنْ وضعهما ضمن سورة "النجم" فى ترجمته للقرآن الكريم إلى الفرنسية . ويخالف كازانوفا بعض زملاء مهنته الذين يقولون إن الرسول هو الذى قام بحذفهما، إذ يرى أن حذفهما إنما تم بعد وفاة الرسول عليه السلام وأنه لا دخل له بهذا الحذف. كما أشار أيضا إلى ما يروى عن بعض آل البيت من أن القرآن قد حُذِف منه أسماء بعض كبارهم منه (ص١٤٢ فما يليها) .

فأما بالنسبة لما يسمَّى بـ"آيَتَىِ الغرانيق" فإن الزعم بأن سورة "النجم" كانت تحتوى فى البداية على هاتين الآيتين اللتين تمدحان "اللات والعُزَّى ومَنَاة"، ثم حُذِفتا منها فيما بعد، يعنى أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان يتمنى أن يصالح القرشيين حتى يكسبهم إلى صفه بدلا من استمرارهم فى عداوتهم لدعوته وإيذائهم له ولأتباعه، ومن ثَمَّ أقدم على تضمين سورة "النجم" تَيْنِك الآيتين عقب قوله: "أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى؟" (النجم/ ١٩- ٢٠) على النحو التالى: "إنهنّ الغرانيق العُلا * وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى". وغاية هذا الزعم هو الإساءة للرسول الكريم بالقول بأنه لم يكن مخلصا فى دعوته، بل لم يكن نبيا بالمرة، وإلا لما أقدم على إضافة هاتين الآيتين من عند نفسه. وهذه الفرية هى مما يحلو للمستشرقين والمبشرين أن يرددوها للمكايدة وإثارة البلبلة، مع أن أقل نظرة فى سورة "النجم" أو فى سيرة حياته صلى الله عليه وسلم كافية للقطع بأن تلك القصة لا يمكن أن تكون قد حدثت على هذا النحو الذى اخترعه بعض الزنادقة قديما، وأخذ أعداء الإسلام يرددونها!

وقد تناول عدد من علماء المسلمين قديما وحديثا الروايات التى تتعلق بهاتين الآيتين المزعومتين وبينوا أنها لا تتمتع بأية مصداقية. والحقيقة إن النظر فى سورة "النجم" وحدها ليؤكد أنها لا تتمتع فعلا بأية مصداقية. فهذه السورة من أولها إلى آخرها عبارة عن حملة

مدمدمة على المشركين وما يعبدون من أصنام بحيث لا يُعْقَل إمكان احتوائها على هاتين الآيتين المزعومتين، وإلا فكيف يمكن أن يتجاور فيها الذم العنيف للأوثان والمدح الشديد لها؟ ترى هل يمكن مثلا أن تتصور شخصا ينهال بالسب والإهانة على رأس إنسان ما، ثم إذا به في غمرة انصبابه بصواعقه المحرقة عليه ينخرط فجأة في فاصل من التقريظ، ليعود كرة أخرى في الحال للسب والإهانة؟ هل يعقل أن يبلع العرب مثل هاتين الآيتين اللتين تمدحان آلهتهم، وهم يسمعون عقيب ذلك قوله تعالى: "أَلكم الذَّكَر وله الأنثى؟ * تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى * إنْ هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إنْ تتَّبِعون إلا الظن وما تَهْوَى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى"؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوره!

كما أن وقائع حياته صلى الله عليه وسلم تجعلنا نستبعد تمام الاستبعاد أن تكون عزيمته قد ضعفت يوما، فقد كان مثال الصبر والإيمان بنصرة ربه له ولدعوته. ومواقفه من الكفار طوال ثلاثة وعشرين عاما وعدم استجابته في مكة لوساطة عمه بينه وبينهم رغم ما كان يشعر به من حب واحترام عميق نحوه، ورغم الإيذاء الرهيب الذى كان يتعرض له هو وأتباعه، وكذلك رفضه لما عرضوه عليه من المال والرئاسة، هى أقوى برهان على أنه ليس ذلك الشخص الذى يمكن أن يقع فى مثل هذا الضعف والتخاذل!

هذا، وقد أضفتُ طريقةً جديدةً للتحقق من أمر هاتين الآيتين عن طريق التحليل الأسلوبى، إذ نظرتُ فى الآيتين المذكورتين لأرى مدى مشابهتهما لسائر آيات القرآن فوجدت أنهما لا تمتان إليها بصلةٍ البتة. ذلك أن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطا للشفاعة يوم القيامة دون تعليقها على إذن الله، وهو ما لم يسنده القرآن فى أى موضع منه إلى أى كائن مهما تكن منزلته عنده سبحانه. ولن نذهب بعيدا للاستشهاد على ما نقول، فبعد هاتين الآيتين بخمس آيات فقط نقرأ قوله تعالى: "وكم مِنْ مَلَكٍ فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويَرْضَى". فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله؟ ثم إنه قد وردت فى الآية الثانية من آيتى الغرانيق كلمة "تُرْتَجَى"، وهى أيضا غريبة على الأسلوب القرآنى، إذ ليس فى القرآن المجيد أى فعل من مادة "ر ج و" على صيغة "افتعل". أما ما جاء فى إحدى الروايات من أن نص الآية هو: "وإنّ شفاعتهن لتُرْتَضَى"، فالرد عليه هو أن هذا الفعل بهذه الصيغة، وإن ورد فى القرآن ثلاث مرات، لم يقع فى أى منها على "الشفاعة"، وإنما تُسْتَخْدَم مع الشفاعة عادةً الأفعال التالية: "تنفع، تغْنِى، يملك".

كذلك بدأت مجموعةُ الآيات التى تتحدث عن اللات والعُزَّى ومناة بقوله عَزَّ شأنُه: "أ(ف)رأيتم . . . ؟"، وهذا التركيب قد ورد فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى خطاب الكفار فى مواقف الخصومة والتهكم وما إلى ذلك بسبيل كما فى الشواهد التالية: "قل: أرأيتم إن أتاكم عذابُه بَيَاتًا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون؟" (يونس/ ٥٠)، "قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حلالا وحراما، قل: آللهُ أَذِنَ لكم أم على الله تفترون؟" (يونس/ ٥٩)، "قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِد شاهدٌ من بنى إسرائيل على مِثْلِه فآمن واستكبرتم؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين" (الأحقاف/ ١)، "أفرأيتم الماء الذى تشربون؟ * أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المُنْزِلون؟ * لو نشاء جعلناه أُجَاجًا، فلولا تشكرون" (الواقعة/ ٦٨– ٧٠) . فكيف يمكن إذن أن يجىء هذا التركيب فى سورة "النجم" بالذات فى سياق ملاطفة الكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم؟ وفوق هذا لم يحدث أن أُضيفت كلمة "شفاعة" فى القرآن الكريم (فى حال مجيئها مضافة) إلا إلى الضمير "هم" على خلاف ما أتت عليه فى آيتى الغرانيق من إضافتها إلى الضمير "هنّ" .

وفضلا عن ذلك فتركيب الآية الأولى من الآيتين المزعومتين يتكون من "إنّ (وهى مؤكِّدة كما نعرف) + ضمير (اسمها) + اسم معرّف بالألف واللام (خبرها)" . وهذا التركيب لم

يُسْتَعْمَل لـ"ذاتٍ عاقلةٍ" فى أى من المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم (وهى تبلغ العشرات) دون زيادة التأكيد لاسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله، كما فى الأمثلة التالية: "ألا إنهم هم المفسدون/ ألا إنهم هم السفهاء/ إنه هو التواب الرحيم/ إنك أنت السميع العليم/ إنك أنت التواب الرحيم/ إنه هو السميع العليم/ إنه هو العليم الحكيم/ إنه هو الغفور الرحيم/ إنى أنا النذير المبين/ إنه هو السميع البصير/ إننى أنا الله/ إنك أنت الأعلى/ إنا لنحن الغالبون / إنه هو العزيز الحكيم/ وإنا لنحن الصافّون/ وإنا لنحن المسبِّحون/ إنهم لهم المنصورون/ إنك أنت الوهاب/ إنه هو السميع البصير/ إنه هو العزيز الرحيم/ إنك أنت العزيز الكريم/ إنه هو الحكيم العليم/ إنه هو البَرّ الرحيم/ ألا إنهم هم الكاذبون/ فإن الله هو الغنى الحميد" .

أما فى المرة الوحيدة التى ورد التركيب المذكور دون زيادة التأكيد لاسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله (وذلك فى قوله تعالى: "إنه الحق من ربك"/ هود/ ١٧) فلم يكن الضمير عائدا على ذات عاقلة. ولو كان الرسول يريد التقرب إلى المشركين بمدح آلهتهم لكان قد زاد تأكيد الضمير العائد عليها بضميرٍ مثله على عادة القرآن الكريم بوصفها "ذواتٍ عاقلةً"، ما داموا يعتقدون أنها آلهة. وعلى ذلك فإن التركيب فى أُولَى آيَتَىِ الغرانيق هو أيضا تركيب غريب على أسلوب القرآن الكريم.

مما سبق يتأكد لنا على نحوٍ قاطعٍ أن الآيتين المذكورتين ليستا من القرآن، وليس القرآن منهما، فى قليل أو كثير. بل إنى لأستبعد أن تكون كلمة "الغرانيق"، التى لا يعرفها القرآن، قد وردت فى أى من الأحاديث التى قالها النبى عليه الصلاة والسلام. وينبغى أن نضيف إلى ما مرّ أن كُتُب الصحاح لم يرد فيها أى ذكر لهذه الرواية، ومثلها فى ذلك ما كتبه ابن هشام وأمثاله فى السيرة النبوية.

ولقد قرأتُ فى كتاب "الأصنام" لابن الكلبى (تحقيق أحمد زكى/ الدار القومية للطباعة والنشر/ ١٩) أن المشركين كانوا يرددون هاتين العبارتين فى الجاهلية تعظيما للأصنام الثلاثة، ومن ثَمَّ فإنى لا أستطيع إلا أن أتفق مع ما طرحه سيد أمير على الكاتب الهندى المسلم من تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث، بناءً على ما ورد من روايات فى هذا الموضوع، إذ يرى أن النبى، عندما كان يقرأ سورة "النجم"، وبلغ الآيات التى تهاجم الأصنام الثلاثة، توقَّع بعض المشركين ما سيأتى بعد ذلك فسارع إلى ترديد هاتين العبارتين فى محاولة لصرف مسار الحديث إلى المدح بدلا من الذم والتوبيخ (Ameer Ali, The Spirit of Islam, Chatto and Windus, London, 1978, P.134). وقد

كان الكفار فى كثير من الأحيان إذا سمعوا القرآن أحدثوا لَغْطًا ولَغْوًا كى يصرفوا الحاضرين عما تقوله آياته الكريمة (فُصِّلَتْ/ ٢٦)، فهذا الذى يقوله الكاتب الهندى هو من ذلك الباب.

ولتقريب الأمر أسوق للقارئ مثالا على هذه الطريقة كنت من شهوده، إذ كان رئيس ومرؤوسه يتعاتبان منذ أعوام فى حضورى أنا وبعض الزملاء، وكان الرئيس يتهم المرؤوس المسكين بأنه يكرهه، والآخر يحاول أن يبرئ نفسه عبثا لأنه كان معروفا عنه خوضه فى سيرة رئيسه فى كل مكان. وفى نوبة يأس أسرع قائلا وهو يؤكد كلامه بكل ما لديه من قوة: "إن ما بينى وبينك عميق!"، فما كان من زميل معروف بحضور بديهته وسرعة ردوده التى تحوِّل مجرى الحديث من وجهته إلى وجهة أخرى معاكِسَةٍ إلا أن تدخل قائلا فى سرعة عجيبة كأنه يكمل كلاما ناقصا: "فعلا! عميقٌ لا يُعْبَر". وهنا أمسك الرئيس بهذه العبارة وعدَّها ملخِّصةً أحسن تلخيص للموقف ولمشاعر مرؤوسه المزنوق الذى يحاول التنصل مما يُنْسَب إليه!

وأما ما يروى عن بعض آل البيت من أن بعض الأسماء الهاشمية كانت موجودة فى القرآن ثم حُذِفَت فقد قيل ما هو أشنع من ذلك وأبشع، إذ زعم بعض الشيعة أنه كانت هناك سورة تسمى: "النورين" أو "الولاية" (تستغرق صفحة ونصفا تقريبا) حُذِفَتْ فيما بعد

لأنها كانت تنص على حق آل البيت فى حكم المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد نهضتُ منذ عشرين سنة ونِّيف لدراسة هذه السورة مضمونيا وأسلوبيا فى عشرات الصفحات على النحو الذى تناولتُ به تحليل آيَتَىِ الغرانيق، فكان كتابى المسمى: "سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم- دراسة تحليلية"، وهو الكتاب الذى أَثْبَتَ من خلال الدراسة المستقصية المفصلة أن تلك السورة لا يمكن، ولا فى جملة واحدة منها، أن تكون من القرآن. وبذلك أُسْدِل الستار على تلك المسألة. ويستطيع القارئ أن ينزِّل الكتابَ المذكور من المشباك (الإنترنت) ويقرأه بنفسه ليطمئن إلى صدق تلك النتيجة.

وكان كازانوفا قد توقف أمام عبد الله بن أبى السرح بوصفه كاتبا مدلسا استطاع أن يخدع النبى ويعبث بالنص القرآنى بتغيير بعض كلماته التى أقره رسول الله على تغييرها، فكان أَنْ وَقَعَ الشكُّ فى صدره وارتدّ عن الإسلام وترك النبى ولحق بقريش، ثم عاد فرجع إليه قبيل فتح مكة. وكان كازانوفا قد ذكره على نحو عارض دون أن يصرح باسمه فى أوائل الكتاب فى قوله إن بعض كتاب النبى كانوا محل شك (ص٣)، ثم أورد (ص١٠١- ١٠٢)

قصته كلها فى أحد الملاحق التى أضافها فى نهاية الكتاب نقلا عن تفسير الطبرى، الذى أوردها ضمن روايات أخرى عند تناوله الآية الرابعة والتسعين من سورة "الأنعام".

يقول الطبرى: "حدثنى محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل قال: ثنا أسباط عن السدى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللّهِ كَذِبا أو قالَ أُوحِىَ إلى وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىء . . ." إلى قوله: "تُجْزَوْنَ عذَابَ الهُونِ" قال: نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح: أسلم، وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أملى عليه "سميعا عليما" كتب هو "عليما حكيما"، وإذا قال "عليما حكيما" كتب "سميعا عليما"، فشكَّ وكَفَر، وقال: إن كان محمد يُوحَى إليه فقد أُوحِىَ إلى، وإن كان الله يُنْزِله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله. . . . فلحق بالمشركين، ووَشَى بعمار وجبير عند ابن الحضرمى أو لبنى عبد الدار، فأخذوهم فعُذِّبوا حتى كفروا. وجدع أذن عمار يومئذ، فانطلق عمار إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فأخبره بما لقى والذى أعطاهم من الكفر، فأبى النبى صلى الله عليه وسلم أن يتولاه، فأنزل الله فى شأن ابن أبى سَرح وعمار وأصحابه: "مَنْ كَفَرَ باللّه مِنْ بَعْدِ إيمَانهِ إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْرًا". فالذى أُكْرِه: عمار وأصحابه، والذى شَرَحَ بالكفر صدرا: فهو ابن أبى سرح".

ولسوف آخذ الرواية كما هى، وأتساءل: كيف لابن أبى السرح أن يكتب للنبى فى المدينة ثم يرتد ويفر إلى مكة ويشى بعمار وخبير مما جعل المشركين يعذبون عمارا ويكرهونه على نطق كلمة الكفر، ونحن نعلم أن نزول آيات "النحل" الخاصة بنطق عمار بكلمة الكفر إنما كان فى مكة؟ ثم كيف يوافقه الرسول على تغيير بعض كلمات القرآن، والقرآن يقول عن الرسول: "ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذْنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين"؟ فهل يمكن أن يوافق الرسول على ما صنعه ابن ابى السرح بعدما نزل القرآن بهذا التهديد حتى لو قلنا إنه هو الذى ألفه؟ إنه ما كان ليفعل ذلك بأى حال، وإلا قيل إنه يخالف القرآن. ثم إنّ تفاخُر ابن أبى السرح بأنه قد قال قرآنا هو كلام لا يدخل الدماغ لأنه يعلم أن تحدى الله للمشركين فى هذا الصدد إنما كان فى أقل تقدير بسورة كاملة من سور القرآن لا بكلمة أو اثنتين. كذلك فعودته إلى الإسلام تدل على أنه لم يكن صادقا فى هذا الكلام، وإلا فكيف رجع إلى دينٍ قال قبل ذلك إنه دين مزيف وإنه قادر على تأليف كتاب مثل كتابه وإن نبيه قد رافأه على العبث الذى كان يرتكبه فيه؟ ويحسن فى هذا السياق أن نكون على ذكر من أن الرجل قد اشترك فى كثير من الفتوح وأبلى بلاء حسنا، فلِمَ يخاطر بحياته من أجل دين يؤمن بأنه دين مزيف؟ بل لقد قالوا إنه اعتزل الفتنة التى كانت بين على ومعاوية تحرجا منها.

كذلك قالوا إن الرسول عليه الصلاة والسلام، حين أتاه ابن أبى السرح تائبا بعد فتح مكة، رفض فى البداية أن يمد يده ليبايعه رغم أن ابن أبى السرح مد يده إليه ثلاث مرات، انتظارا من الرسول أن يقوم أحد من الصحابة الذين كانوا موجودين حوله ليضرب عنقه بالسيف. فكيف يكره الرسول أن يتوب أحد ؟ أليس باب التوبة مفتوحا للإنسان إلى أن يغرغر ؟ ومنذ متى يرفض الرسول عليه السلام إلى هذا الحد أن ينقذ إنسانا من النار رغم إقراره بذنبه ورجوعه عن خطئه ومجيئه بنفسه يعلن غلطه وتوبته على رؤوس الأشهاد ؟ وأخيرا لو كانت هذه الحكاية صحيحة لما أفلتها المشركون فى مكة ولا اليهود فى المدينة، ولطنطنوا بها مشنعين على محمد أنه يقبل العبث فى القرآن دون خالجة من ضمير. بل ما كان المسلمون ليسكتوا رغبة منهم فى معرفة ما تُلوعِب فيه من ألفاظ القرآن حتى يردوه إلى أصله الصحيح ولقامت ضجة فى المدينة جراء هذا الأمر، وبخاصة عند جمع القرآن بعد وفاة الرسول حين يجدون أن بعض الآيات المكتوبة تنتهى بعبارات تختلف عما حفظوه. وهو ما لم يحدث. وإنى لأتصور أنه ارتكب شيئا غير التلاعب فى كتابة القرآن، ثم تاب وانتهى الأمر. وهذا الكلام الذى قيل عن ابن أبى السرح قد قيل هو نفسه عن شخص آخر يقال إنه كان نصرانيا وأسلم. والواقع أنى لا أصدق بشىء من هذا أو ذاك.

ثم لو كان الأمر كما يقول المستشرق الفرنسى من أن محمدا كان يقول لقومه إن الساعة ستقوم فى زمنه فلماذا، عند موت الرسول دون قيام الساعة كما وعد وأكد وكرر، لم يرتدّ الناس على بكرة أبيهم قائلين: ها هو ذا محمد قد مات، ولم تقم الساعة، فقد كان إذن يكذب علينا، ومن ثم لا بد من الخروج من هذا الدين المزعوم الذى أسسه نبى كاذب؟ أليس هكذا ينبغى أن تكون الأمور قد سارت فى مثل تلك الظروف؟ نعم، لقد كانت هناك ردة كما نعرف، بيد أنها وقعت بعيدا عن مكة وأهلها الذين كان ينزل فيهم هذا الوحى، ولأسباب مختلفة تماما عما نحن فيه. ليس ذلك فقط، بل لو كان الأمر على ما يزعم كازانوفا لشَنَّعَ به عليه الأسود العَنْسِىّ ومسيلمة الكذاب فيقول كل منهما للعرب إنه قد اتضح الآن أن محمدا كاذب كبير، فتعالَوْا إلىَّ واهجروا دينه، فأنا نبى صادق لا أردد مثل تلك الأكاذيب الغشيمة. لكننا ننظر فى أقوالهما فلا نرى أيا منهما أومأ إلى هذا الموضوع البتة.

كما يتخذ كازانوفا من قوله تعالى فى آخر "الحِجْر": "واعبدْ ربَّك حتى يأتيَك اليقينُ" دليلا على أن الرسول كان يعتقد أن الساعة ستقوم فى حياته، إذ يفسر "اليقين" بأنه هو يوم القيامة (ص٣٧ وما بعدها). ومعنى الآية إذن أن الله يأمر رسوله بأن يظل يعبد ربه حتى تقوم الساعة. وفى الطبرى، الذى يورد دائما كل الأقوال فى تفسير الآية، نقرأ ما يلى: "يقول

تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: واعبد ربك حتى يأتيك الموت، الذى هو مُوقَن به. وقيل: يقين، وهو موقَن به، كما قيل: خمر عتيق، وهى معتَّقَة. وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل. ذِكْر من قال ذلك: حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، قال: ثنى طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: "واعْبُدْ رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ" قال: الموت. حدثنى محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا عيسى وحدثنى الحارث قال: ثنا الحسن قال: ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مثله. حدثنى المثنى قال: ثنا أبو حذيفة قال: ثنا شبل، وحدثنى المثنى قال: ثنا إسحاق قال: ثنا عبد الله عن ورقاء جميعا عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مثله. حدثنى عباس بن محمد قال: ثنا حجاج قال: ابن جريج: أخبرنى ابن كثير أنه سمع مجاهدا يقول: "حتى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ" قال: الموت. حدثنا بشر قال: ثنا يزيدُ قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: "واعْبُدْ رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ" قال: يعنى الموت. حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة: "حتى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ" قال: اليقين: الموت. حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة مثله. حدثنى المثنى قال: ثنا سويد بن نصر قال: أخبرنا ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن فى قوله: "حتى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ" قال: الموت. حدثنا ابن وكيع قال: ثنا أبى عن سفيان عن طارق عن سالم مثله. حدثنى يونس قال:

أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد فى قوله: "واعْبُدْ رَبَّكَ حتى يَأْتِيكَ اليَقِينُ" قال: الموت. إذا جاءه الموت جاءه تصديق ما قال الله له وحدّثه من أمر الآخرة. حدثنى يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب: أن خارجة بن زيد بن ثابت أخبره عن أمّ العلاء، امرأة من الأنصار، قد بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته أنهم اقتسموا المهاجرين قُرْعة. قالت: وطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه فى أبياتنا، فوَجِع وجعَه الذى مات فيه. فلما تُوفِّى وغُسِّل وكُفِّن فى أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا عثمان بن مظعون، رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك: لقد أكرمك الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومَا يُدْرِيكَ أنَّ اللَّهَ أكْرَمَهُ؟ قالت: يا رسول الله، فَمَنْ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمَّا هُوَ فَقَدْ جاءَه اليَقِينُ. ووَاللَّهِ إنّى لأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ" . حدثنا أبو كريب قال: ثنا مالك بن إسماعيل قال: ثنا اسماعيل قال: ثنا إبراهيم بن سعد قال: ثنا ابن شهاب عن خارجة بن زيد عن أمّ العلاء امرأة عن نسائهم عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه. عبد الرحمن المسروقى قال: ثنا جعفر بن عون قال: أخبرنا إبراهيم بن إسماعيل عن محمد بن شهاب أن خارجة بن زيد حدثه عن أمّ العلاء، امرأة منهم، عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه، إلا أنه قال فى حديثه: فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أمَّا هُوَ فَقَدْ عايَنَ اليَقِينَ" . فهل عاين عثمان بن مظعون قيام الساعة؟ خيبة

الله على كل متمرد كذاب! وبهذا التفسير يقول الهوارى والزمخشرى والقرطبى والطبرسى وابن كثير والشوكانى والطباطبائى وابن عاشور، وقد اخترت هذه الطائفة من العلماء بحيث يمثلون الألوان التفسيرية المختلفة من سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج وقدماء ومحدثين. فكيف يكذب كازانوفا ويدعى أن المفسرين قد شرحوا "اليقين" هنا بأنه قيام الساعة؟

ترى لو أن النبى عليه السلام كان يعتقد وينشر بين أصحابه أن الساعة ستقوم فى حياته بحيث يتزامن موتُه ووقوعُها فلِمَ يا تُرَى كتب فى قرآنه، الذى ألفه طبقا لمزاعم كازانوفا، أنه لا يصح أن يتزوج المسلمون أزواجه من بعده أبدا؟ معنى ذلك أنه سيموت قبل الساعة وتبقى زوجاته وأصحابه من بعده بحيث يمكن أن يفكر بعضهم أن يأخذ هذه أو تلك من نسائه زوجة له. ولو افترضنا أن المزورين الذين عكفوا على القرآن هم من أضاف هذا الكلام الذى لم يكن له وجود فى حياة النبى لأنه كان يعتقد أن الساعة ستقوم فى حياته، ومن ثم لن تكون ثم فرصة لتفكير أحد من المسلمين فى الزواج من أى من نسائه، فضلا عن أن يتزوجها فعلا، فلِمَ هجست نفوسهم بهذه الفكرة التى لا يمكن أن تخطر على بال أحد، والتى كانت قمينة أن تثور نساء النبى عليه السلام عليها، إذ تحرمهن من مزاولة حياتهن الفطرية لقاء لاشىء، بخلاف ما لو نزل هذا الحكم من السماء، فإنهن سوف ينزلن

عليه راضيات مؤمنات كما حدث فعلا؟ كما كان عدد من الصحابة كُفَلاء أن يعترضوا على أمر كهذا لم يقله الرسول نفسه، إذ كان هناك من يتطلع إلى التزوج بهذه أو تلك من زوجاته، وبخاصة بعدما ثبت أن كلامه، أستغفر الله العظيم، فشنك وأن محور رسالته قد انتقض تماما بعدم قيام الساعة فى حياته.

كذلك لو كان القرآن قد ربط بين قيام الساعة وموت الرسول ثم مات الرسول، كما وقع فعلا، أكان الصحابة يَبْقَوْن على إيمانهم به وينطلقون فى عزم وثيق يفتحون العالم؟ إن وقوع الأمر على ذلك النحو كان كفيلا بأن يُفْقِد الصحابةَ اتزانهم وإيمانهم برسولهم ويبين لهم أنه إنما كان يكذب عليهم فيرتدوا، أو فى أقل القليل: كان من شأنه أن يحبطهم ويقضى على الأمل بين جنباتهم فى الانتصار على الدنيا والدين كله فلا يفكروا مجرد تفكير فى فتح البلاد ونشر الدين. لكن كازانوفا قد أعماه التعصب، فصال وجال فى بيداء الهزل والوهم، وضل عن بينة وبصيرة وسبق إصرار.

إن من ينظر إلى ما وقع فى المدينة عند مرضه وعقب وفاته صلى الله عليه وسلم لا يسمع أحدا يذكر شيئًا عن هذا الموضوع، بل الكل متألم شديد الحزن على وفاته عليه السلام وحرمانهم من ذلك الوقت فصاعدا من رؤية محياه الشريف. ثم ما إن تمت مراسم الدفن

وخمدت نار فتنة الأنبياء الكذبة على أيدى جمهور المؤمنين الصادقين الوفيين حتى انطلق المسلمون من كل أرجاء الجزيرة العربية يفتحون البلاد ويعرضون الإسلام على الأمم وينتصرون وينجحون أيما نجاح وانتصار.

وقبل هذا كله لم يا ترى وضع النبى نفسه فى هذا الحرج دون أن يكون هناك ما يدعوه إلى هذا ولا حتى فى الإنجيل التى يزعم كازانوفا أنه قد استوحاه فى الدعوى التى أعلنها ؟ لقد كان محمد حكيما حكمة بالغة. ومثله لا يمكن أن يضع نفسه فى هذا الموقف البالغ الضِّيق والتعاسة. إن رجلا كانت كل خطوة من خطواته موفقة غاية التوفيق، وكل تنبؤ تفوَّه به قد وقع كما قال بالضبط، من المستبعد جدا أن يحشر نفسه فى هذه الزاوية الصعبة. بل إن الفكرة نفسها لم تكن لتخطر له أبدا على بال مهما كان الأمر.

ولقد ساق كازانوفا عددا من الآيات التى تشير إلى يوم القيامة قائلا إن محمدا كان ينتظر عبثا وقوع الساعة الموعودة بينما يرى ويسمع سخرية المشركين به واحتقارهم له (ص٣٦ وما يليها). لكن هل فى القرآن أو فى الحديث ما يصدّق هذا الكلام الفارغ؟ هل النبى هو ذلك الرجل الذى ييأس ويشعر بالإحباط ويضع نفسه فى مأزق عسر ثم يتطلع حوله كى ينقذه أحد ؟ الواقع أن محمدا لم يكن ذلك الرجل الساذج المرتبك يوما، بل كان مثالا عاليا

فى الفصاحة وضبط النفس والتخطيط والتنظيم وصلابة الأمل ورسوخ الثقة، ومن ثم كان ناجحا فى كل ما فعل وخطط وتحققت كل نبوءاته لم تتخرم منها نبوءة واحدة. كما يفيض القرآن بالآيات التى تؤكد فى يقين تام انتصار الإسلام واندحار الشرك، وهو ما وقع على النحو الذى وعد. لقد تحدى القرآن المشركين وسفَّه معتقداتهم وبيَّن لهم طريق النجاة، طريق الإيمان والتقوى والبِرّ، وقال لهم: اصنعوا ما شئتم فلسوف تُغْلَبون. وقد غُلِبوا وسلَّموا ودخلوا جميعا فى الإسلام بعدما أذاقهم الله الخزى والفشل فى بدر والأحزاب وفتح مكة، تلك المواجهات التى نزلت عليهم كصاعقة عاد وثمود، إذ دهورتهم من حالِق وصدمتهم بالأرض صدمة طيرت ألبابهم فلم يجدوا بدا من الدخول فى الإسلام كى يستعيدوا توازنهم، ثم صاروا أبطاله بعد أن كانوا ألد أعدائه وأعنف محاربيه وأشنع المضطغنين عليه. ولا ينبغى أيضا أن نهمل أدعية الرسول، وهى كثيرة ومحفوظة، وليس فيها دعاء بأن تأتى الساعة أو يقرب الله يوم القيامة أبدا. ولو كان هذا مما يؤمن به النبى الكريم لدعا ربه أن يحققه.

وبالمثل عندنا ما كتبه البيزنطيون قريبا جدا من عصر النبى، وليس فيه أية إشارة إلى هذا الموضوع، الذى لو كان صحيحا لاتخذوا منه سببا للهجوم على دعوته واتهامه بالاختراع والتزييف وإطلاق الأقوال التى لا أساس لها. وها هو ذا سيبيوس المطران الأرمينى من أهل

القرن السابع الميلادى يكتب فى حولياته الأرمينية عن النبى محمد، استقاءً من شهود عيان، ما يؤكد المعلومات المعروفة عنه وعن دينه، فليس فيما كتب الرجل أى شىء من السخف الذى زعمه كازانوفا من أنه صلى الله عليه وسلم إنما جاء للإنذار بأن الساعة واقعة عما قريب فى حياته، وأن تلك هى كل مهمته. وعنده أن محمدا جاء برسالة تنادى بالوحدانية وتدعو إلى حب الله والصدق فى القول، وتحرِّم الميتة والخمر والزنا، وتَعِد المؤمنين به بوراثة البلاد التى أعطاها الرب إبراهيم وابنه عليهما السلام بحيث تكون لهم إلى الأبد. ثم انتقل إلى الكلام عن الفتوح الإسلامية بادئا بفتح الشام وهزيمة هرقل على أيدى المسلمين.

كتب سيبيوس فى العقد السادس من القرن السابع الميلادى: "كان هنالك فى ذلك الوقت إسماعيلى اسمه مهميت، وكان يعمل تاجرا. لقد قدّم لهم نفسه، كما لو أن الله أمره بذلك، كبشير، كطريق إلى الحقيقة، وعلّمهم كيف يعرفون إله إبراهيم لأنه كان مطلعًا على قصة موسى وملمًّا بها للغاية. ولأن الأمر جاء من العَلِىّ فقد توحدوا كلهم تحت سلطة رجل واحد فى ظل شرع واحد، وعادوا إلى الإله الحى الذى كشف ذاته لأبيهم إبراهيم بعد أن هجروا عباداتهم. حرّم عليهم مهميت أكل أى حيوان ميت، شُرْب الخمر، الكذب أو الزنى. لكنه أضاف: "لقد وعد الله بهذه الأرض لإبراهيم ونسله من بعده إلى الأبد. لقد عمل

بحسب وعده (الله) حين أحب إسرائيل. والآن أنتم أبناء ابراهيم، وعَبْرَكم ينجز الله الوعد الذى أعطاه لإبراهيم ونسله. أحبوا فقط إله إبراهيم. اذهبوا وخذوا بلدكم التى أعطاها الرب لأبيكم ابراهيم. فما من أحد سيقدر على مقاومتكم لأن الله معكم". ثم اجتمعوا كلّهم من حويلة إلى شور، التى تجاه مصر (سفر التكوين ١٨:٢٥).

لقد خرجوا من صحراء فاران مقسّمين إلى اثنى عشر سِبْطًا وَفْقَ سلالات آبائهم. وبين قبائلهم الاثنتى عشرة قسّموا الاثنى عشر ألف إسرائيلى: ألف ألف لكل قبيلة، وذلك لهدايتهم إلى أرض إسرائيل. وانطلقوا، مخيّمًا بعد مخيم، وفق نظام آبائهم: نبايوت، قيدار، أدبئيل، مبسام، مشماع، دومة، مسّا، حدار، تيما، يطور، نافيش وقدمة (سفر التكوين ٢٥: ١٥–١٨). هؤلاء هم أسباط اسماعيل... وجاء كل من بقى من شعوب بنى إسرائيل لينضم إليهم حتى شكّلوا جيشا عظيما. ثم أرسلوا بسفير إلى إمبراطور اليونان ليقول له: "لقد أعطى الله هذه الأرض إرثا لأبينا ابراهيم ونسله من بعده. ونحن أبناء ابراهيم، وأنت أخذت بلدنا بما فيه الكفاية. تخلَّ عنها بسلام، وسوف لن نغزو بلادك، وإلا فسوف نسترد ما أخذت ونزيد عليه". وهذا بعض كلامه فى ترجمته الإنجليزية، وهى لـ Robert Bedrosian:

“In that period a certain one of them, a man of the sons of Ishmael named Muhammad, became prominent [t’ankangar]. A sermon about the Way of Truth, supposedly at God’s command, was revealed to them, and [Muhammad] taught them to recognize the God of Abraham, especially since he was informed and knowledgeable about Mosaic history. Because the command had [g104] come from on High, he ordered them all to assemble together and to unite in faith. Abandonning the reverence of vain things, they turned toward the living God, who had appeared to their father—Abraham. Muhammad legislated that they were not to [123] eat carrion, not to drink wine, not to speak falsehoods, and not to commit adultery. He said: “God promised that country to Abraham and to his son after him, for eternity. And what had been promised was fulfilled during that time when [God] loved Israel. Now, however, you are the sons of Abraham, and God shall fulfill the promise made to Abraham and his son on you. Only love the God of Abraham, and go and take the country which God gave to your father Abraham. No one can successfully resist you in war, since God is with you.”

ولدينا أيضا يوحنا الدمشقى، وهو كذلك من أهل القرن السابع الميلادى. وكان، وأبوه وجده من قبله، يشتغلون فى البلاط الأموى بدمشق، وكتب يخطئ القرآن ذاكرا أسماء عدد

من سوره ومحتوياتها، إذ كان على اتصال وثيق بالمسلمين ومعرفة لصيقة بكتابهم ودينهم.
وها هو ذا يتحدث فى كتابه: "De Haeresbius" عن القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام والمسلمين، فقال ضمن ما قال عنهم: "هم منحدرون من إسماعيل بن إبراهيم من هاجر، ولهذا يقال عنهم: الإسماعيليون أو الهاجريون. كما يطلَق عليهم كذلك: السراسينيون، وهى مشتقة من "Sarras kenoi" أو "فقراء سارة" لأن هاجر قالت للملاك: لقد أبعدتْنى سارةُ فقيرة" . . . ظهر بينهم نبى مزيف يدعى: محمدا. وهذا الرجل، بعد أن اطلع على العهد القديم والعهد الجديد، وبعد أن تحدث مع راهب أريوسى، قام باختراع هرطقته الخاصة. وحين تسلل إلى قلوب الناس الطيبين بالتظاهر بالتقوى زعم أن كتابا نزل عليه من السماء. وقد وضع بعض المؤلفات السخيفه فى ذلك الكتاب، وقدمه إليهم بوصفه شيئًا مقدسا. وهو يقول إن هناك إلها واحدا خالقا لكل الأشياء لم يلد ولم يولد، وإن المسيح كلمة الله وروحه، لكنه عبد مخلوق، وهو مولود بدون بذر من مريم أخت موسى وهارون، وإن اليهود أرادوا صلبه لكنهم قبضوا على شبيه له وصلبوه لأن الله، من محبته له، أخذه إليه فى السماء، وعندما صعد إليه قال له: يا يسوع، هل قلت للناس إنك ابن الله أو إنك الله؟ فأجاب يسوع: كن رحيما بى يا إلهى. أنت تعلم أننى لم أقل هذا وأننى لم أرفض أن أكون عبدك، ولكن رجالا مخطئين كتبوا أننى قلت هذا، وقد كذبوا علىَّ ووقعوا فى

الخطيئة. . .". ثم راح يوحنا الدمشقى يهاجم عقائد الإسلام هجوما شديدا، وهى نفس العقائد التى نعرفها اليوم ولا نعرف غيرها. ولو أن ما قاله المستشرق الفرنسى صحيح لما سكت الدمشقى عن ذلك ولأقام مناحة عليه.

وهناك أيضا ثيوفانيس المؤرخ البيزنطى الشهير من أهل القرن الثامن الميلادى، وقد كتب عن الوقائع الكبرى فى حياة الرسول الكريم بما يتفق مع كلام المسلمين بغض النظر عن تفسيره الخاطئ لبعض تلك الوقائع وتكذيبه لنبوته صلى الله عليه وسلم وتجاوزه حدود الأدب معه ورميه إياه بالصَّرْع، تلك التهمة التى فَنَّدْتُها تفصيلا فى كتابى: "مصدر القرآن" من واقع وصف الأطباء لأعراض ذلك المرض. ولو كان ما يريد الكاتب الضلالى إيهام القراء به صحيحا من أن دعوته صلى الله عليه وسلم كانت تدور حول قيام الساعة فى حياته بحيث يتزامن موته وانتهاء العالم معا لأشار ثيوفانيس إلى ذلك. قال فى كتابه: "The Chronicles of Theophanes" عن أحداث سنة ٦٣٠م: "فى هذه السنة تُوُفِّى محمد زعيم العرب ونبيهم الكاذب. وقبل موته قام باختيار قريبه أبى بكر ليخلفه فى الزعامة. وعند انتشار أخباره خارج بلاد العرب انتاب الجميعَ الرعبُ. وفى البداية صَدَّقه اليهود المغرَّر بهم ظنا منهم أنه المسيح المنتظر، وانضم عدد من زعمائهم إلى دينه، تاركين

موسى، الذى رأى الإله. وكان عدد هؤلاء عشرة بَقُوا إلى جانبه إلى أن اغتيل. ولكن حينما رَأَوْه يأكل لحم الإبل عرفوا أنه ليس المسيح المنتظر. ومع هذا كانوا فى حيرة من أمرهم لأنهم كانوا يَخْشَوْن ترك دينه، فبَقُوا معه وعلَّموه أشياء غير مشروعة ضدنا نحن النصارى.

ومن الضرورى، فيما أتصور، الحديث عن أصل ذلك الرجل. فهو ينحدر من قبيلة كبيرة ترجع بدورها إلى إسماعيل بن إبراهيم، ومن إسماعيل ينحدرُ نزار، الذى يُعْتَقَد أنه أبو العرب أجمعين. وكان لدى نزار ابنان هما مُضَر وربيعة، وأبناء مضر هم قريش وقيس وتميم وأسد وآخرون غير معروفين. وكانوا يعيشون بصحراء مدين فى الخيام ويَرْعَوْن الماشية، وكان هناك قبائل أخرى بعيدون عنهم وغير منتسبين إليهم هم قبائل قحطان، أى الحِمْيَرِيُّون. ولِكَوْن محمد مُعْدِمًا يتيما فقد عَمِل لدى سيدة غنية من أقربائه اسمها خديجة فى التجارة بأموالها مع القوافل فى أسواق مصر وفلسطين. ثم أحبته وتزوجته، وكانت أرملة، وصارت له أموالها وإبلها.

وعندما كان يذهب إلى فلسطين كان يختلط باليهود والنصارى ساعيا إلى الحصول منهم على المعارف الكتابية. وكان يعانى أيضا من الصَّرْع. وعندما لاحظت زوجته ذلك اعتراها الحزن لأنها، وهى الشريفة، قد ارتبطت برجل يتيم مريض بهذا المرض، فعمل على

خداعها قائلا إنه يشاهد دائما رؤيا فيها ملاك يدعى: جبريل، وكلما رآه سقط مغشيا عليه. فأخبرت خديجة بتلك الرؤيا صديقا لها راهبا كان قد طُرِدَ جراء عقيدته المنحرفة، فعمل على طمأنتها قائلا لها إن محمدا صادق، وإنّ الملاك المذكور هو الملاك الذى يرسله الله إلى جميع الأنبياء.

وقد أصبحت خديجة، جَرَّاءَ كلام ذلك الراهب المزيف، أول المؤمنين بمحمد، وقامت بتبليغ الدين الجديد إلى جميع نساءِ قبيلتها، اللاتى بَلَّغْنَه بِدَوْرِهِنّ إلى رجالهن. وأول من صدَّق به هو أبو بكر، الذى أصبح خليفته. وقد غزت بدعةُ هذا الرجل يثربَ عن طريق الحرب كحَلٍّ أخير بعدما ظل يدعو إليها سرا عشر سنوات، ثم تسعا أخرى من خلال القتال. وقد علّم أتباعه أن من قُتِل على يد الأعداء يدخل الجنة حيث يستمتع بالطعام والشراب ومعاشرة النساء وأنهار الخمر والعسل واللبن وغير ذلك من ضروب التهتك والغباء، وأن المسلمين ينبغى أن يتراحموا ويتعاونوا ويُقِيلُوا من يخطئ منهم من عِثَاره". وهكذا يتبدى للعيان بمنتهى القوة والسطوع أن النظرية التى يقدمها المستشرق بول كازانوفا حول المحور الذى كانت تدور حوله دعوة محمد هى نظرية تافهة سخيفة أثمرها عقل مريض يحتاج إلى علاج.

ومع هذا كله فإنه يمضى قائلا إن النبى مر بثلاث مراحل فى هذا الصدد: الأولى كان يؤكد فيها أن الساعة على وشك الوقوع، وفى الثانية كان مترددا وكان يجيب كلما سئل عن الموعد أنه لا يعرف متى تقع، والثالثة انشغل فيها بالأحداث الراهنة عن ذلك الموضوع (انظر بدءا من ص٧٠) . يقول الرجل هذا وكأن محمدا كان يعلن أوحاءه هذه لنفسه، ومن ثم لم يعترض عليه أحد من أعدائه ولا استفسر منه عن هذا التراجع أو التناقض أى من أتباعه.

ومن وحى المرحلة الأولى، بل الوحى الأول عنده، ما جاء فى سورة "النبأ"، ثم جاء التهديد بالنار للأغنياء كما فى "التكاثر" و"الهُمَزة" . وهو هنا يرى تأثير الرهبان. ولا أدرى أى تأثير هذا ولا أين نجده. فأولا لم يكن التركيز على القيامة بل على وجوب معاونة الفقراء والمحتاجين، مما يدل على أن الإسلام دين حضارة وبناء للدنيا واهتمام بتحسينها منذ اللحظة الأولى. كما أن التهديد ليس موجها إلى الأغنياء بل إلى الأشحَّاء والمغرورين بأموالهم فقط، أولئك الذين يتصورون أن المال هو كل شىء وأنه كفيل بتخليدهم، وإلا فعندنا سورة "الليل" مثلا، وهى تتكلم عن غنىٍّ يعطف على المكسورين تقربا إلى الله سبحانه فينال رضاه جل وعلا فى مقابل بخيل ممسك شحيح مصيره العُسْرَى. كما أن سورة "النبأ" تخلو تماما من القول بأن الساعة على وشك الوقوع. إنها تتناول وصف يوم القيامة، وانقسام البشر فريقين:

واحد إلى النعيم، والآخر إلى العذاب المقيم. وهذا كل ما هنالك. وهو موجود حتى فى السور المدنية كسورة "الإنسان" مثلا و"محمد" . ثم إن الكلام فى "التكاثر" و"الهُمَزة" ليس عن قيام الساعة كما يزعم بل عن النعيم والجحيم، أى ما بعد الساعة والقيامة والحساب جميعا وانصراف كل فريق إلى مثواه الذى أعده الله له من جنة أو نار. كما أن هذا الوصف موجود فى السور المكية (مثل سورة "الواقعة" و"الرحمن" و"الطور") التى نزلت بعد ما هو مفترض أن يكون من وحى المرحلة الثانية حيث يظهر تساؤل الكفار عن ميعاد الساعة فينفى النبى علمه به. بل إن سورة كسورة "النازعات" مثلا، وهى تنتمى إلى الوحى المبكر جدا، أى من وحى المرحلة الأولى بحديثها عن الساعة وأمر الله لرسوله عليه السلام أن يعلن جهله بميعادها، تدل على أن النبى، منذ الوهلة الأولى، كان يُسْأَل عن ميعاد الساعة فيجيب بأن معرفة موعدها ليس من اختصاصه، ولم ينتظر هذا الموضوع إلى المرحلة الثانية حسبما يزعم كازانوفا . ثم لو كان الأمر كما يقول كازانوفا وكان النبى قد أكد قرب قيام الساعة لما كنا سمعنا سؤالا عن ميعادها بل استهزاء واستنكارا جراء عدم وقوعها أصلا. وعلى كل فإن السؤال عن ميعاد الساعة لم يتكرر إلا مرات قليلة جدا . فانظر كيف يتناول المستشرق هذه المسائل بخفة لا تليق بالعلماء !

وأما أن النبى قد انشغل بالأحداث اليومية التى تتالت عليه فى المدينة عن الكلام فى الساعة فهذا غير صحيح: فالكلام لم يتوقف يوما عن ذلك الموضوع، وإن لم تكن التفاصيل كثيرة كما هو الحال قبلا، إذ قد استقرت عقيدة اليوم الآخر بكل جوانبها فى العقول والقلوب، ولم يعد هناك موجب للإلحاح عليها، وبخاصة إذا وضعنا فى أذهاننا أن النبى لم يأت بالإسلام من أجل الحديث عن قربها بل كان الحديث عنها مَدْرَجًا لدفع المسلمين إلى فعل الخيرات والكف عن الشرور والآثام. لقد صارت عقيدة الحياة الآخرة تجرى فى دمائهم ولا تغادر أفكارهم أبدا، ومن ثم كثر اهتمام الوحى بموضوعات الدنيا التى يريد أن يقاربها المسلم فى طهارة خلقية وسلوكية يساعده على تحريها والتزامها ما وقر فى نفسه من الإيمان بالحساب والثواب والعقاب والجنة والعذاب.

كذلك فقوله إن أحداث الهجرة والانتصارات التى حققها النبى فى المدينة قد غطت على موضوع الساعة، وكان السيف جاهزا فى يده لقطع رقبة كل من تسول له نفسه بالسؤال عنها (ص٨٢)، كله خطأ فى خطإ، فقد رأينا أن السؤال عن ميعاد الساعة لم يتوقف فى المدينة، بل كان هناك مسلمون، حسبما نرى فى القرآن والأحاديث، يستفسرون منه دائما عن ميعادها فيجيبهم بما كان يجيب به المشركين فى الأيام الأولى من الدعوة فى مكة، وهو

أن الله وحده هو من يعلم ذلك. أما السيف فالرد عليه سهل وبسيط جدا، لأنه إذا كان صلى الله عليه وسلم لم يحاول يوما إسكات المسلمين عن السؤال عن الساعة أفتراه يستعمل السيف لإسكات الكافرين؟ فمتى كان ذلك؟ وكيف؟ وأين الأخبار التى تتحدث عن هذا الموضوع؟ ثم هل السيف هو الذى نشر الإسلام وأخرس الأعداء؟ فما الذى أوصل الإسلام إلى مرحلة القوة هذه؟ أليس لأن ناسا كثيرين كانوا مشركين دخلوا الإسلام حتى صار قويا؟ وإلا فلماذا لم يستخدم السيف فى مكة؟ كما أن المعارك بينه صلى الله عليه وسلم وبين أعدائه استمرت سنوات، فلم يا ترى لم نسمع فى تلك السنوات صوتا من أصوات أولئك الأعداء يسخر من النبى ومن ساعته، وصاحبُه آمنٌ فى مكة لا يمكن أن يناله سيف محمد؟ إن الأشعار التى قيلت فى هذه المعارك والأخبار التى أرخت لها موجودة، وليس فيها شىء عن هذا البتة!

وأما قول الكاتب إن تقسيم الناس فى العالم الآخر ما بين طيبين وأشرار لم يأت إلا فى مرحلة لاحقة (ص٧٢) فهذا خطأٌ صُرَاحٌ، بل هو قبل ذلك كذب وتضليل. ففى سورة "القارعة" و"الزلزلة" و"الليل" و"الغاشية" و"النبأ" و"المرسلات" و"المعارج" و"الحاقة" مثلا نرى هذا التقسيم، وهى من السور المبكرة فى الوحى المكى. ومن الواضح أن المستشرق

يعيش فى شرنقة من الأوهام والتعصب القبيح تحجب عنه الرؤية الصحيحة، بل أغلب الظن أنه هو الذى نسج هذه الشرنقة كى يضع فيها القراء فلا يَرَوُا الحقائق التى تطمس على أكاذيبه وأخاديعه. ولنلاحظ أنه قد عد سورة "النبأ" أولى السور التى تتحدث عن ميعاد الساعة، وليس فيها من ثم حسب كلامه تقسيم للبشر إلى طيبين وأشرار، إذ إن هذا التقسيم لم يظهر، كما رأينا فى زعمه قبل قليل، إلا فى مرحلة لاحقة. إذن فهو يهرف بالسخف هرفا لا يبالى حقا من باطل ولا صوابا من خطإ. إنه يرتب السور زمنيا حسبما يحلو له واضعا فى ذهنه أن يتسق هذا الترتيب مع دعاواه المسبقة، وهيهات.

كذلك لو كان كلام كازانوفا صحيحا لقد كان الأحرى بالمشركين ألا يؤمنوا بالنبى أبدا ما داموا رَأَوْا أنه قد خدعهم ولم تقم الساعة رغم تأكيده الملحاح على أنها على وشك الوقوع. لكن الذى حدث هو أن المشركين كلهم قد آمنوا، وحين مات لم يرتدوا بل ارتدت فقط بعض القبائل البعيدة عن مكة والمدينة جراء أسباب أخرى لا علاقة لها بعدم قيام الساعة كما هو معلوم، وكان مسلمو مكة (أى كفارها السابقون) على رأس الحملات العسكرية التى أعادت لهؤلاء الآبقين الشاردين رشدهم إلى رؤوسهم.

ومما يقوله فى هذا السياق (ص٦٤) أن القرآن يتحدث هنا وهناك عن إيمان أهل الكتاب بالدعوة الجديدة. لكن لم يقل القرآن إن أهل الكتاب يؤمنون بالدين الجديد الذى أتى به عليه السلام بل قال ما معناه أن منهم من يؤمن بصدق النبى ويتقبل الوحى الذى جاء به على أنه وحى حقيقى نزل عليه من السماء . وشتان بين ما يقول كازانوفا وبين ما يقوله القرآن. ولو كان كلامه صوابا فلم قال القرآن المجيد فى واحدة من أبكر سور الوحى المكى مثلا: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيَهم البيّنة * رسولٌ من الله يتلو صحفا مطهَّرة * فيها كتبٌ قيمةٌ" راميا إياهم بالكفر؟

ثم يمضى كازانوفا قائلا (ص٧٤) إنه بعد هذه المرحلة جاءت مرحلة أخرى حاول فيها محمد إقناع أهل الكتاب بصحة دينه، حتى إذا يئس منهم انقلب يلعنهم لعنا شديدا . والمفروض أن تكون هذه المرحلة التالية هى مرحلة الوحى المدنى حيث احتك عليه السلام باليهود فى المدينة وحولها، وزاره فى يثرب بعض الوفود النصرانية من الحبشة واليمن. لكننا رغم هذا نجد فى الوحى المكى تعرية لليهود، وسردا للمتاعب التى لقيها موسى وهارون منهم، وإبرازا للكفر الذى كانوا يرتدّون إليه كلما أكرمهم الله وأنجاهم من خطر مبير كما هو

الحال مثلا فى "طه" و"يونس" و"الأعراف" بالنسبة لليهود. وتقاس عليها سورتا "الأحزاب" و"مريم" بالنسبة للنصارى.

وبمناسبة سورة "مريم" لقد كانت آياتها التى تؤكد بشرية المسيح وعبوديته لله وتنفى بكل قوة بنوَّته له سبحانه هى الآيات التى قرأها، أمام نجاشى الحبشة وبطارقته، أولئك المسلمون المهاجرون إلى تلك البلاد حين تعقَّبهم بعض القرشيين إلى هناك بغية الوقيعة بينهم وبين النجاشى ورجال دينه وتأليبهم عليهم حتى يقوموا بطردهم وإعادتهم إلى مكة كى يستأنف المشركون تعذيبهم وفتنتهم عن دينهم وإرجاعهم إلى الشرك كرة أخرى. نعم قرأها المهاجرون عند النجاشى، فكان تعقيب العاهل النبيل أنه لا يوجد أدنى فرق بين هذه الآيات وبين ما يؤمن هو به بشأن المسيح عليه السلام. ونجَّى الله المهاجرين الشجعان المخلصين، ورَدَّ القرشيين بغيظهم لم ينالوا خيرا.

والغريب أن كازانوفا لم يجد إلا آية سورة "العنكبوت" التالية يستشهد بها على صحة ما يقول: "وكذلك أنزلنا إليك الكتاب. فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومِنْ هؤلاء من يؤمن به. وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون" (ص٧٥). ووجه الغرابة أن الآية التى تسبق هذه تقول: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم. وقولوا: آمنا بالذى أنزل

إلينا وأنزل إليكم. وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون" . إذن فهناك أهل كتاب ظالمون، وهناك جدال بين المسلمين وبينهم، وليست المسألة سمنا على عسل كما يريد الكاتب إيهامنا . لقد كان فى مكة فى ذلك الوقت بعض النصارى الذين ما إن شرع الرسول يدعو أهلها إلى دينه الجديد حتى سارعوا إلى الإيمان به، ومنهم جبر ويسار وورقة رضى الله عنهم. لقد كان السبب فى ثناء القرآن على بعض أهل الكتاب أنهم لم يترددوا أمام الحق بل أعلنوها مدوية أنهم مؤمنون بمحمد ودين محمد وتوحيد محمد . أما حينما حدث الاحتكاك الواسع وكان هناك معاندون كثيرون منهم ركبوا رؤوسهم ولم يشاؤوا أن يراجعوا ما ورثوه عن أهليهم ومجتمعاتهم من عقائد منحرفة وأصروا على الكفر فحينئذ أَصْلَى القرآنُ أولئك المتصلبين نارا لاهبة. وأما الذين آمنوا منهم فظل القرآن على موقفه السابق تجاههم، وهو موقف الثناء عليهم.

ثم يزعم كازانوفا أن الرسول عليه السلام فى هذه المرحلة كان يقول إن قرآنه امتداد لكتابهم. ولهذا كان يستعمل لهما كلمة واحدة هى "الكتاب" (ص٧٥) . فهل غيَّر هذا الكلام فيما بعد ؟ لقد قال مثلا فى سورة "الشورى" المكية: "شَرَعَ لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصَّيْنا به إبراهيمَ وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا

تتفرقوا فيه"، وهو نفسه ما قاله فى سورة "النساء" المدنية: "إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسى وأيوبَ ويُونُسَ وموسى وهارونَ وسليمانَ. وآتينا داودَ زَبُورًا". فما المشكلة؟ إنه عليه السلام لم يغير موقفه قط. وإذا كان القرآن قد قال فى سورة "الإسراء" المكية مخاطبا المشركين: "قل: آمِنُوا به أو لا تؤمنوا. إن الذين أُوتُوا العلمَ من قَبْلِه إذا يُتْلَى عليهم يخِرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون: سبحان ربنا! إنْ كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون، ويزيدُهم خشوعا" فقد قال فى سورة "آل عمران" المدنية: "مِنْ أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمةٌ يتلون آياتِ الله آناءَ الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر ويسارعون فى الخيرات. وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكْفَروه. والله عليم بالمتقين". كما قال فى سورة "المائدة" المدنية أيضا: "ذلك بأن منهم قِسِّيسِين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * وإذا سَمِعوا ما أُنْزِل إلى الرسول ترى أعينَهم تَفِيض من الدمع مما عرفوا من الحق. يقولون: ربنا آمَنّا، فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمعُ أن يُدْخِلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين؟ * فأثابَهم اللهُ بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها. وذلك جزاءُ المحسنين". وليس فى الأمر غرابة، فالذين أثنى عليهم القرآن هنا وهناك هم من آمن من أهل الكتاب بالإسلام وصاروا يقرأون القرآن أو

يسمعونه فيبكون. فلا تغيُّر إذن فى موقفه صلى الله عليه وسلم كما يدَّعى كازانوفا، الذى يعزو ترحيب أهل الكتاب بالنبى فى البداية إلى تصورهم أنهم يمكن أن يحولوه إلى دينهم. لكن أين الدليل؟ لقد كان القرآن واضحا منذ البداية فى موقفه منهم، إذ أنكر انحرافاتهم بكل صراحة وجابههم بعيوبهم القاتلة ولم يجامل ولم يُرَاءِ. ولِمَ يجامل أو يرائى، وحامِلُه رسولٌ من رب العالمين لم يأت بالإسلام مِنْ لَدُنْه ولم يَبْغِ مصلحةً شخصيةً أو أُسْرِيَّة حتى يُضْطَرَّ إلى قول ما لا يؤمن به؟ ولقد أعلن المولى بكل حسم أنه لو تقوَّل عليه بعض الأقاويل لأنزل به عقابا صارما وقضى عليه فى الحال دون أن يستطيع أحد من البشر حمايته من هذا المصير.

وفى المرحلة الثالثة، التى يقول كازانوفا إن محمدا قد أهمل فيها حكاية نهاية العالم تماما وانشغل بالأحداث المتلاحقة فى المدينة حيث صار حاكما وقاضيا وقائدا، نجده هو نفسه يذكر أن محمدا كان يسمى أهل الكتاب بـ"المسلمين"، لكنه عندما لم يؤمنوا به انقلب عليهم وفض الارتباط الذى كان يصله بهم ناسبا نفسه إلى إبراهيم، الذى قال إنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا (ص٧٩– ٨٠). وهذا كله قائم على أساس مائق، إذ لم يحدث يوما قط أن أطلق النبى صلى الله وسلم صفة "المسلم" على أى من أهل الكتاب فى عصره، بل كان يطلقها على كل الأنبياء السابقين وأتباعهم إلى جانب أتباعه هو أيضا بطبيعة الحال، أما معاصروه

من أهل الكتاب الذين كفروا به فكيف يُتَصَوَّر أن يسميهم: "مسلمين"، وهم منحرفون عن دينهم، وفوق ذلك لم يقبلوا دينه؟ كما أنه حين أطلق على الرسل السابقين وأتباعهم وصف "المسلمين" لم يقصد أنهم على نفس ما يدعو إليه جملة وتفصيلا وفى كل جليلة ودقيقة، بل أنهم مؤمنون بالله قد أسلموا أنفسهم إليه وكانوا يوحدونه ويعبدونه ويعتقدون فى اليوم الآخر والحساب والجنة والنار، فضلا عن أن الأخلاق هنا وهناك واحدة، أما التشريعات فمختلفة فى بعض الأشياء . فهو هنا أيضا لم يغير موقفه. فكما أن أتباعه مسلمون لأنهم أسلموا أنفسهم وأمرهم لربهم وعملوا بما يقتضيه ذلك الإسلام فكذلك كان أتباع الأنبياء السابقين. إن كازانوفا يعمل بكل جهده على إبراز محمد فى صورة المرتبك المتلون الذى يغير دائما مواقفه تحت ضغط الظروف. وهو يظن أنه لو شهد لمحمد بالصدق (الصدق الواهم المخدوع الذى يؤمن صاحبه بما لا حقيقة له خارج نفسه، إذ لا يخرج الأمر عن أن يكون هلاوس بصرية وسمعية وما إلى ذلك ص٤– ٦) فسوف يكون قد أعطاه حقه، وأعطى نفسه مع ذلك الحقَّ فى الكذب عليه واتهامه باطلا وزورا . لكن هذا لا يمكن أن يروج عندنا أبدا .

أما بالنسبة لما قاله كازانوفا من أن محمدا قد انشغل فى المرحلة الثالثة والأخيرة عن أمر الساعة بالأحداث التى أخذت تتلاحق وتستغرق وقته واهتمامه بعد ترك مكة فلم يعد

يذكرها أو يهتم بها أو يُسْأَل عن ميعاد حلولها (ص٨٢) فماذا هو قائل فى هذه الآيات المدنية أو التى نزلت بعد ترك مكة إلى المدينة: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىءٌ عَظِيمٌ (١)" (الحج)، "ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ (٧)" (الحج)، "وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)" (الحج)، "يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)" (الأحزاب)، "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)" (محمد) ؟

والطريف أنه، رغم ما ادعاه من أن النبى فى المرحلة الثالثة (مرحلة المدينة) كان منشغلا بالأحداث اليومية الكبيرة المتلاحقة عن التفكير فى أمر الساعة أو الاهتمام بها، يقف أمام الآية الثامنة عشرة من سورة "محمد" (ص٨١) بوصفها دليلا قاطعا على أنه صلى الله عليه وسلم كان يؤمن بأن الساعة على وشك الوقوع، وأنه لم يبق سوى إسدال الستار

على العالم فيكون فى خبر كان. وبعيدا عن التناقض الفجّ الذى وقع فيه كازانوفا هنا فالواقع أن القرآن، كما لاحظت، يبدو فى كثير من الأحيان كما لو كان يخاطب معاصرى النبى بينما الكلام موجه إلى البشرية جمعاء فى كل الأجيال، أو يستخدم صورا لا عهد للعرب المعاصرين للنبى بها، أو يورد معلومة لا يعرفها أى أحد فى عصر نزوله. لنأخذ مثلا قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠)" (الأنبياء)، "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)" (النور)، "وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)" (الفرقان)، "وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)" (فاطر)، "يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ

أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)" (الزُّمَر) . . . إلخ.

فلا الذين كفروا ولا حتى الذين آمنوا قد رَأَوْا أن السماوات والأرض كانتا أوّلا رتقا ثم فُتِقَتَا، ولا أحد من العرب فى ذلك العصر رأى مثل تلك الأمواج الهائلة فى الظروف المرعبة التى وصفتها آية "النور"، ولا أحد رأى البرزخ الذى يفصل بين البحرين ويمنع بغى أى منهما على الآخر، وفسرتُه أنا فى بعض كتبى بأنه قوانين البخر والمطر التى تحكم عملية تبخر أمواه البحار والمحيطات ثم تكاثف الأبخرة وصيرورتها سحبا تندفع فى السماء حتى تهطل على الجبال العالية وتهبط إلى المنخفضات حيث تصير بحيرات أو تندفع فى الأودية وتعدو فى طريقها الطويل حتى تنتهى مرة أخرى إلى البحر والمحيط، ومن ثم فالذى يأخذه البخر من البحار المِلْحَة تعيده الأنهار العذبة كرة أخرى إليها . . . وهكذا دواليك، فلا يطغى أى من الماء الملح أو العذب على الآخر وتظل النسبة بينهما واحدة على مدى الأزمان. فالبرزخ هنا برزخ معنوى لا مادى.

وبالمثل لا أحد فى عصر الرسول كان يعرف شيئًا عن الظلمات الثلاث التى يخلق الله فيها البشر داخل بطون أمهاتهم حتى تأكد هذا بعد تقدم العلم، وذكر د. كيث مور أستاذ

علم التشريح فى جامعة تورنتو بكندا فى كتابه الشهير " The Developing Human" أن الجنين ينتقل فى بطن أمه من مرحلة تطور إلى أخرى داخل ثلاثة الأغطية التى عبر عنها القرآن الكريم بـ"الظلمات الثلاث"، وأن هذه الظلمات هى جدار البطن، وجدار الرحم، والمشيمة بأغشيتها الكوريونو- أمنيونية. وفى مؤتمر "الإعجاز العلمى الأول للقرآن الكريم والسنة المطهرة"، الذى عُقد بالقاهرة عام ١٩٨٦م، أعلن كيث مور (Keith Moore) أثناء محاضرته أنه لا يعتقد أن محمدًا أو أى شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث فى تطور الجنين لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا فى الجزء الأخير من القرن العشرين.

كذلك فإن أحدا فى عصر النبوة لم يكن يعلم أن البحر العذب (أى الأنهار) يحوى لؤلؤا ومرجانا وياقوتا وزيركونا وألماسا وذهبا وفضة كما اتضح بعد ذلك فى العصر الحديث حتى إن مفسرى القرآن قبل عصرنا الحالى كلهم تقريبا يقولون إن قوله تعالى فى آية "فاطر": "ومِنْ كلّ (أى من كلٍ من البحر العذب والبحر الملح) . . . تستخرجون حِلْيَةً تلبسونها" هو على التغليب، بمعنى أن الحِلْيَة، وإن اسْتُخْرِجَتْ فقط من البحر الملح، فقد ضم القرآنُ البحرَ العذبَ إليه مجازا، مما يذكرنا بقولهم: "العُمَران"، والمقصود عمر وأبو بكر، و"القَمَران"،

والمقصود الشمس والقمر . . . وهكذا . فقوله تعالى فى سورة "محمد": "فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ؟ فَأَنَّى لَهُمْ، إِذَا جَاءَتْهُمْ، ذِكْرَاهُمْ ؟" موجه إلى البشرية على امتداد عصور التاريخ تحفيزا لهم إلى العمل الصالح والاستعداد الدائم لدخول الامتحان الإلهى الأخروى فى أى وقت. ومثل ذلك كلام القرآن عن آدم فى بعض المواضع إذ يشعر الإنسان أن المقصود الجنس البشرى كله لا أبوه فقط. وكذلك يمتن القرآن فى بعض آياته على بنى إسرائيل المعاصرين للنبى بأنه قد نجاهم من آل فرعون وفلق لهم البحر وغير ذلك من النِّعَم رغم أن هذه النعم إنما كانت لأجدادهم منذ أدهار طوال لا لهم هم. ومثله قوله سبحانه فى "الحاقة" يتحدث عما نزل بعاد وثمود وفرعون وقوم نوح وكأن الكلام عن أقوام أُهْلكُوا أمس فقط وليس منذ دهور: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)" . بل إن الكلام فى قوله: "حملناكم فى الجارية" يبدو وكأن المقصود بالخطاب أهل مكة بوصفهم هم الذين نَجَوْا مع نوح لدى الطوفان. . . وهكذا . وفى قوله عَزَّ مِنْ قائلٍ فى سورة

"النحل": "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ؟ (٤٨)" صيغ الكلام وكأن عيوننا تبصر سجود الأشياء وظلالها لله مع أن أعيننا لا تلتقط ذلك. فليربع المستشرق على ظلعه وليهدأ ولا يكابر، بل عليه أن يتعلم التواضع مع ربه ومع كتاب ربه ورسوله. وبالمناسبة فأنا هنا أخاطب المستشرق الذى مات وشبع موتا وكأنه واقف أمامى يستمع إلى ما أقول. وهذا مثال آخر من خارج القرآن على ما أقوله هنا.

هذا فى القرآن، أما فى الأحاديث فإلى القارئ الكريم بعضها كى يعرف أن المستشرق الفرنسى لا يقول الحق ولا يعرف الصدق وأن تعصبه الغبى وهواه المريض قد طَغَيَا على قلبه وطمسا على عينيه: "لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ من مغربِها، فإذا طلعت فرآها النَّاسُ آمنوا أجمعون فذلك حين "لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا". ولتقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشر الرَّجلان ثوبَهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يَطْوِيانه، ولتقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرف الرَّجلُ بلبنِ لِقْحَتِه فلا يَطْعَمُه، ولتقومَنَّ السَّاعةُ وهو يُلِيطُ حوضَه فلا يَسْقِى فيه، ولتقومَنَّ السَّاعةُ وقد رفع أُكْلَتَه إلى فيه فلا يَطْعَمُها"، "بينما النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فى مجلسٍ يُحدِّثُ القومَ جاءه أعرابى فقال: متى الساعةُ؟ فمضى

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُحَدّثُ، فقال بعضُ القومِ: سمِع ما قال فكَرِه ما قال. وقال بعضُهم: بل لم يَسمَعْ. حتى إذ قضى حديثَه قال: أينَ أُرَاه السائلُ عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسولَ اللهِ. قال: فإذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانْتَظِر الساعةَ. قال: كيف إضاعتُها ؟ قال: إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهله فانتظِرِ الساعةَ"، "لا تزالُ عصابةٌ من أمتى يقاتلون على أمرِ اللهِ قاهرين لعدوِّهم، لا يضرُّهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعةُ وهم على ذلك"، ويروى أنس "أنَّ رجُلا قال: يا رسولَ اللهِ، متى تقومُ السَّاعةُ؟ وأُقيمَت الصَّلاةُ. فلمَّا قضى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاتَه قال: أين السَّائلُ عن السَّاعةِ؟ قال: ها أنا ذا يا رسولَ اللهِ قال: إنَّها قائمةٌ، فما أعدَدْتَ لها ؟ قال: ما أعدَدْتُ لها كبيرَ عملٍ. غيرَ أنِّى أُحِبُّ اللهَ ورسولَه. فقال النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنتَ مع مَن أحبَبْتَ"، "جلس رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مجلسًا له فأتاهُ جبريلُ عليه السلامُ فجلس بينَ يَدَىْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واضعًا كَفَّيْهِ على رُكْبَتَى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال: . . . يا رسولَ اللهِ، فحَدِّثْنى متى الساعةُ. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: سبحانَ اللهِ! فى خمسٍ من الغيب لا يَعلَمُهنَّ إلا هو: "إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَى أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ". ولكن إن شئتَ حدَّثْتُك بِمَعالمَ لها دونَ ذلكَ. قال: أجلْ يا رسولَ اللهِ، فحدِّثْنى. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّمَ: إذا رأيتَ الأَمَةَ ولدتْ رَبَّتَها أو رَبَّها ورأيتَ أصحابَ الشاء تَطاولوا بالبنيانِ ورأيتَ الحُفاةَ الجِياعَ العالةَ كانوا رؤوسَ الناسِ فذلك من مَعَالِمِ الساعة وأَشْراطِها"، "من أشراطِ الساعة أن يُرْفَعَ العلمُ، ويظهرَ الجهلُ، ويُشْرَبَ الخمرُ، ويظهرَ الزنا، ويقلَّ الرجالُ، ويكثُرَ النساءُ حتى يكونَ للخمسين امرأةً القيّمُ الواحدُ" . . . إلخ.

وبطبيعة الحال ظل الكلام مستمرا عن يوم القيامة والحساب والثواب والعقاب الأخروى كما كان الحال قبلا، ولكن ليس بكثرة التفاصيل السابقة، فقد استقر الإيمان بذلك فى النفوس وصار يؤتى ثماره الطيبة فى الاعتقادات والعبادات والأخلاق والسلوك والإنجازات، فلم تعد هناك حاجة إلى التريث الطويل عنده. ثم كيف يجزم النبى بأن الساعة ستقع فى حياته وهو الذى يؤكد مرارا وتكرارا منذ وقت جدّ مبكرٍ من عمر الدعوة أنه لا يعرف شيئًا من الغيب بما فى ذلك القيامة والبعث، وأُمِر فى القرآن أمرا أن يقول للناس هذا حتى يقشع عن عقولهم أنه يتمتع بقوى خارقة، إذ هو نبى رسول لا يفرق بينه وبين سائر البشر سوى أنه يوحى إليه وأنه على خلق عظيم؟ بل إن الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب رغم ما يشاع بين كثير من الناس أنهم يعلمونه. جاء فى القرآن العظيم: "قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَى قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا

تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)" (الأنعام)، "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الارْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)" (الأنعام)، "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِى عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِى السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)" (الأعراف)، "قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)" (النمل)، "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الارْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)" (سبأ)، "قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)" (الجن) . وفى الوقت ذاته لا يوصف أحد أبدا بأنه عالم الغيب عدا الله سبحانه وتعالى، وهو ما تكرر كثيرا فى القرآن.

ومن أكاذيب المستشرق الفرنسى أيضا قوله إن محمدا قد فَصَلَ نفسه فى هذه المرحلة الثالثة، مرحلة المدينة، عن أهل الكتاب وتحوّل إلى قومه العرب نافخا فيهم الغرور بالقول

بانتسابهم إلى إبراهيم وأن دينه هو دين أبيهم هذا وأنهم هم الأمة المختارة التى فضلها الله على العالمين (ص٨٠) . لكن حقائق التاريخ ونصوص القرآن تفضح هذا الكذب والضلال. فإن القرآن لم يقل يوما إن العرب هم الأمة المختارة بل قال: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)" (آل عمران) . ومعنى هذا أن هناك شروطا متى التزم بها المسلمون، وليس العرب، كانوا خير أمة أخرجت للناس. وهذا منطوق الكلام، ومفهومه أنهم إذا لم يوفوا بهذه الشروط فلا خيرية ولا يحزنون. فخيريتهم ليست نابعة من عروبتهم كما يكذب كازانوفا بل من إيمانهم وإخلاصهم ووفائهم والتزامهم بدينهم ومنافحتهم عنه وعملهم على نشره وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كما جاء فى آية "آل عمران" . وكيف يفضل الله العرب على الأمم الأخرى لا لشىء إلا لأنهم عرب، والقرآن يعلنها على رؤوس الأشهاد وفى مسمع العالم كله وعلى مرأًى منه جميعا قائلا: "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، والرسول نفسه يقول: "لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح"، و"اسمعوا وأطيعوا وإن اسْتُعْمِل عليكم عبدٌ حبشىٌّ كأنه رأسه زبيبة"، و"سلمان منا آل البيت"؟ ثم إن دعوى المستشرق الفرنسى الكذاب معناها أن الرسول لم يعد يذكر تفضيل الله لبنى إسرايل على العالمين؟ وهذا أيضا ضلال فى ضلال، فلم يحدث

أن ذكر القرآن تفضيل الله سبحانه لبنى إسرائيل فى العهد المكى بل فى العهد المدنى، الذى يزعم كازانوفا أنه هو العهد الذى انفصمت فيه حبال المودة التى كانت قائمة بين الرسول واليهود قبلا. نجد ذلك فى سورة "البقرة" و"المائدة". وكان ينبغى ألا يتطرق القرآن إلى ذلك أبدا لو كانت المسألة مسألة مشاعر شخصية ومواقف وقتية. ثم إن القرآن لم ينتظر حتى تنفصم المودة الموهومة التى كانت بين النبى وأهل الكتاب طبقا لتحليل كازانوفا، بل ربط بين الإسلام والعرب من جهة وبين إبراهيم من جهة أخرى منذ الوحى المكى. وهذه هى النصوص القرآنية التى تذكر ذلك:

"قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (الأنعام)، "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِى أَنْ نَعْبُدَ الاصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الارْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ

اجْعَلْنى مُقيمَ الصَّلاة وَمنْ ذُرِّيَتى رَبَّنَا وَتقَبَّلْ دُعَاء (٤٠) رَبَّنَا اغْفرْ لى وَلوَالدَى وَللْمُؤْمنينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحسَابُ (٤١)" (إبراهيم)، "إنَّ إبْرَاهيمَ كَانَ أُمَّةً قَانتًا للَّه حَنيفًا وَلَمْ يَكُ منَ الْمُشْركينَ (١٢٠) شَاكرًا لأنْعُمه اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلَى صرَاط مُسْتَقيم (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإنَّهُ فى الآخرَة لَمنَ الصَّالحينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ أَن اتَّبعْ ملَّةَ إبْرَاهيمَ حَنيفًا وَمَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ (١٢٣)" (النحل)، "وَإذْ بَوَّأْنَا لإبْرَاهيمَ مَكَانَ الْبَيْت أَنْ لا تُشْركْ بى شَيْئًا وَطَهّرْ بَيْتى للطَّائفينَ وَالْقَائمينَ وَالرُّكَّع السُّجُود (٢٦) وَأَذّنْ فى النَّاس بالْحَجّ يَأْتُوكَ رجَالا وَعَلَى كُلّ ضَامر يَأْتينَ منْ كُلّ فَجّ عَميق (٢٧) ليَشْهَدُوا مَنَافعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّه فى أَيَّام مَعْلُومَات عَلَى مَا رَزَقَهُمْ منْ بَهيمَة الأنْعَام فَكُلُوا منْهَا وَأَطْعمُوا الْبَائسَ الْفَقيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بالْبَيْت الْعَتيق (٢٩) . . . يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ (٧٧) وَجَاهدُوا فى اللَّه حَقَّ جهَاده هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فى الدّين منْ حَرَج ملَّةَ أَبيكُمْ إبْرَاهيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلمينَ منْ قَبْلُ وَفى هَذَا ليَكُونَ الرَّسُولُ شَهيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس فَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصمُوا باللَّه هُوَ مَوْلاكُمْ فَنعْمَ الْمَوْلَى وَنعْمَ النَّصيرُ (٧٨)" (الحج. وهذه السورة نزلت فى الطريق من مكة إلى يثرب، أى قبل بلوغه إياها والاحتكاك هناك باليهود)، "وَإنَّ منْ شيعَته (أى من شيعة نوح) لإبْرَاهيمَ (٨٣) إذْ جَاءَ رَبَّهُ بقَلْب سَليم (٨٤) إذْ قَالَ لأبيه وَقَوْمه مَاذَا

تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)" (الصافات)، "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)" (الشورى)، "أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ

الْجَزَاءَ الأوْفَى (٤١)" (النجم)، "إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الأولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)" (الأعلى).

ليس هذا فحسب بل إن الله لم يصف القرآن بأنه عربى إلا فى الوحى المكى، أى قبل أن تنكسر عرى التفاهم بين الرسول واليهود طبقا لما يهرف به كازانوفا، ولم يعد إلى ذلك فى الوحى المدنى بتاتا: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)" (يوسف)، "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)" (الرعد)، "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ (١٠٣)" (النحل)، "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)" (طه)، "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ (١٩٥)" (الشعراء)، "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)" (الزمر)، "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)" (فُصِّلَتْ)، "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ

بَعيد (٤٤)" (فُصّلَتْ)، "وَكَذَلكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّة وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ (٧)" (الشورى)، "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)" (الزخرف)، "وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)" (الأحقاف).

ومرة أخرى ليس هذا فحسب، بل إن القرآن قد قص علينا معجزات الرسل السابقين رغم معرفة محمد أنه لن يأتى بمعجزة إذا طلب المشركون منه ذلك. والقرآن المكى مملوء بالكلام عن سفينة نوح ونجاتها هى وركابها من الغرق دون الكافرين، وانفلاق البحر لموسى وقومه حين طاردهم فرعون وانطباقه عقب ذلك على هذا الطاغية ورجاله، وناقة الله التى كانت سببا فى دمار ثمود، والنار التى رُمِىَ فيها إبراهيم لكنه خرج منها سليما لم تمسسه بأى سوء . . . إلخ. لقد كان ينبغى للرسول ألا يتطرق إلى هذا الموضوع وهو الذكى الواسع الرؤية البعيد البصيرة، إذ هو يعرف أن هذا سوف يفتح عليه باب التحدى من جانب المشركين، وسوف يطالبونه بعمل المعجزات كما عملها السابقون من الرسل والنبيين. ولو افترضنا أن محمدا لم يتنبه فى البداية إلى أن حكاية هذه المعجزات فى قرآنه ستستفز المشركين إلى طلب المعجزات منه وتحديه بها لقد كان المتوقع منه والأقمن به لو كان نبيا غير

حقيقى أن يغلق هذا الموضوع فور انثيال مطالب الكافرين منه أن يأتيهم بآية. لكننا ننظر فنجده لم يسكت عن ذكر معجزات إخوانه السابقين قط بل ظل يذكرها ويبرزها . بل إن السيد المسيح، الذى لم تُذْكَر له سوى معجزة واحدة فى الوحى المكى، وهى معجزة كلامه أثناء رضاعته المذكورة فى سورة "مريم"، قد حُكِيَتْ طائفة من معجزاته فى سورة "آل عمران" و"المائدة" المدنيتين. فعلام يدل هذا ؟ يدل على أن محمدا صادق أمين.

لقد كان قادرا منذ البداية ألا يفتح موضوع المعجزات التى عضد الله بها زملاءه السابقين وينكر أن تكون هناك معجزات أصلا. وعلى المعترض أن يثبت أنه كانت هناك معجزات، ولن يستطيع أحد ذلك، إذ المعجزات قد مضت فى الأزمنة الأولى، ولا يمكن بحال من الأحوال استعادتها ومشاهدتها من جديد .

وعودةً إلى كازانوفا نقول إنه لم يكتف بما سبق بل زعم أيضا أن القرآن ما هو إلا وحىٌ أبوكاليبسىٌّ متعلق بيوم القيامة ونهاية العالم، وإن كان قد سارع إلى القول بأن ذلك ينطبق على الأقل على جزئه الأول غير التشريعى. يقصد الفترة المكية (ص٦٨) . فهل الأمر كما يقول؟ الحق أننا لو ألقينا ولو نظرة سريعة على ذلك الجزء من الوحى الكريم لوجدنا دعوة إلى تأمل الكون وما يحويه من مظاهر الجمال والنظام المحكم والتفكر فى قدرة الله، وفيه حض على

إطعام الفقراء والمساكين، وفيه أمر بالتواضع والكرم واحترام الوالدين مهما يكن من شأنهما مع الأبناء، وفيه حث على عبادة الله سبحانه، وفيه قصص عن الأمم السابقة وعقاب الله لمن عصَوْا رسله وتمردوا عليهم عنادا وصلابة عقول وقلوب، وفيه تأكيد بأن الأمم التى تطيع ربها خليقة أن تبقى فى النعمة التى أفاضها عليها ولا تُحْرَم منها بخلاف ما لو طغت وفسقت عن أمره سبحانه، وفيه أمر بالشورى، وفيه تحبيب فى العفو والرحمة والصفح، وفيه نهى عن مجادلة الكافرين وأهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، وفيه أن الله رءوف كريم يغفر الذنوب جميعا ويتوب على عباده مهما أخطأوا وأذنبوا ما داموا يفيئون إليه ويقرون بذنوبهم ويعزمون على عدم العودة إليها ، وفيه حملةٌ على الشرك والوثنية والأصنام ومحاجةٌ عقليةٌ للمشركين المصرين على المضى فيما هم فيه من كفر وطغيان، وفيه تنبيه إلى ما لليتيم من حق فى المعاملة الطيبة والإكرام الجميل، وفيه تحسين للعفة وتقبيح للزنا ، وفيه تخويف من التطفيف فى الكيل والميزان، وفيه لَفْتٌ إلى أن العالم قائم على الميزان الدقيق وأن مراعاة ذلك واجبة، وفيه تبصير بوجوب تحرى العدل والقسط واجتناب الظلم والعدوان، وتنفير من الربا ، وحفز على الصلاة والزكاة، وإعلاء من شأن القلم والقراءة والعلم، وتفضيل للذين يعلمون على الذين لا يعلمون، وتحميس لاستعمال العقل والمنطق فى مسألة الإيمان وتبكيت لإهمالهما ، وحكاية للحظات الوحى الأولى وللإسراء والمعراج، وذكر مفصل لما ينتظر كلا من

المؤمنين والكافرين من جزاء فى الحياة الآخرة، وتذكير للنبى بما أفاض الله عليه من أفضال وبالواجبات التى تقتضيها تلك الأفضال، وأَمْرٌ له بمجاهدة الكافرين بالدعوة إلى التوحيد والحق والرحمة، ومجادلة للمشركين المعترضين على بشرية محمد وخضوعه لما يخضع له البشر من جوع وعطش وما يعمله البشر من اختلاطٍ بنظرائهم ومَشْيٍ فى الأسواق، وإرساء لمبادئ عقلية يجب على البشر التزامها كوجوب مراجعة الآراء السائدة وعدم التمسك بها لمجرد أن الإنسان وجد مجتمعه من قبله يصنع ذلك، وتبغيض للحسد والحقد والغرور والعُجْب بالنفس واكتناز الأموال، وحكاية لقصة الخلق ووقوف عند أطرافها: الله وآدم وإبليس والجنة، والتركيز على وحدة البشرية ووحدة دعوة الرسل والأنبياء، وقيام الله على أمر الكون لا يتركه طرفة عين فهو يحفظه ويدبر شؤونه. . . إلخ، إلخ، إلى جانب الكلام عن أن هذه الدنيا ليست دار خلود بل دار عبور، وأن العالم سوف يتفكك مثلما تَرَكَّب فى البداية، وسيعاد تكوينه فى الحياة الآخرة على وضع مختلف له قوانينه المغايرة لما نعرفه هنا على الأرض الآن، وسوف يكون هناك حساب وجنة ونار. وهذا كله تحضيض للبشر على بذل كل جهد مستطاع فى هذا العالم حتى يفوزوا بالثواب العظيم فى عالم الخلود. فكيف يزعم كازانوفا أن القرآن فى نصفه الأول ليس سوى كلام عن نهاية العالم؟

ولأن الشيء بالشيء يتميز فإننا نحب أن نشير إلى أن الجزء الأپوكاليپسي في العهد الجديد هو "رؤيا يوحنا اللاهوتي"، وها نحن أولاء نورد شيئًا من تلك الرؤيا ليعرف القارئ إلى أي مدى أصاب المستشرق الفرنسي أو أساء. يقول يوحنا اللاهوتي: "٩أَنَا يُوحَنَّا أَخُوكُمْ وَشَرِيكُكُمْ فِي الضِّيقَةِ وَفِي مَلَكُوتِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَصَبْرِهِ. كُنْتُ فِي الْجَزِيرَةِ الَّتِي تُدْعَى بَطْمُسَ مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. ١٠كُنْتُ فِي الرُّوحِ فِي يَوْمِ الرَّبِّ، وَسَمِعْتُ وَرَائِي صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوْتِ بُوقٍ ١١قَائِلًا: «أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ. الأَوَّلُ وَالآخِرُ. وَالَّذِي تَرَاهُ، اكْتُبْ فِي كِتَابٍ وَأَرْسِلْ إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ الَّتِي فِي أَسِيَّا: إِلَى أَفَسُسَ، وَإِلَى سِمِيرْنَا، وَإِلَى بَرْغَامُسَ، وَإِلَى ثِيَاتِيرَا، وَإِلَى سَارْدِسَ، وَإِلَى فِيلاَدَلْفِيَا، وَإِلَى لاَوُدِكِيَّةَ».

١٢فَالْتَفَتُّ لأَنْظُرَ الصَّوْتَ الَّذِي تَكَلَّمَ مَعِي. وَلَمَّا الْتَفَتُّ رَأَيْتُ سَبْعَ مَنَايِرَ مِنْ ذَهَبٍ، ١٣وَفِي وَسْطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ، مُتَسَرْبِلًا بِثَوْبٍ إِلَى الرِّجْلَيْنِ، وَمُتَمَنْطِقًا عِنْدَ ثَدْيَيْهِ بِمِنْطَقَةٍ مِنْ ذَهَبٍ. ١٤وَأَمَّا رَأْسُهُ وَشَعْرُهُ فَأَبْيَضَانِ كَالصُّوفِ الأَبْيَضِ كَالثَّلْجِ، وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ. ١٥وَرِجْلاَهُ شِبْهُ النُّحَاسِ النَّقِيِّ، كَأَنَّهُمَا مُحْمَيَّتَانِ فِي أَتُونٍ. وَصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ. ١٦وَمَعَهُ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى سَبْعَةُ كَوَاكِبَ، وَسَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ، وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَهِيَ تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا. ١٧فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَقَطْتُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ كَمَيِّتٍ، فَوَضَعَ

يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى قَائِلا لِى: «لا تخفْ، أنَا هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ، ١٨وَالْحَى. وكُنْتُ مَيْتًا، وَهَا أَنَا حَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ! آمِينَ. وَلِى مَفَاتِيحُ الْهَاوِيَةِ وَالْمَوْت. ١٩فَاكْتُبْ مَا رَأَيْت، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا هُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هذا. ٢٠سِرَّ السَّبْعَةِ الْكَوَاكِبِ الَّتِى رَأَيْتَ عَلَى يَمِينِى، وَالسَّبْعِ الْمَنَايِرِ الذَّهَبِيَّةِ: السَّبْعَةُ الْكَوَاكِبُ هِى مَلاَئِكَةُ السَّبْعِ الْكَنَائِسِ، وَالْمَنَايِرُ السَّبْعُ الَّتِى رَأَيْتَهَا هِى السَّبْعُ الْكَنَائِسِ»

* * *

١اكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ كَنِيسَةِ أَفَسُسَ: «هذَا يَقُولُهُ الْمُمْسِكُ السَّبْعَةَ الْكَوَاكِبَ فِى يَمِينِه، الْمَاشِى فِى وَسَطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ الذَّهَبِيَّةِ: ٢أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَتَعَبَكَ وَصَبْرَكَ، وَأَنَّكَ لاَ تَقْدرُ أَنْ تَحْتَمِلَ الأَشْرَارَ، وَقَدْ جَرَّبْتَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ رُسُلٌ وَلَيْسُوا رُسُلا، فَوَجَدْتَهُمْ كَاذِبِينَ. ٣وَقَد احْتَمَلْتَ وَلَكَ صَبْرٌ، وَتَعِبْتَ مِنْ أَجْلِ اسْمِى وَلَمْ تَكِلَّ. ٤لكِنْ عِنْدِى عَلَيْكَ: أَنَّكَ تَرَكْتَ مَحَبَّتَكَ الأُولَى. ٥فَاذْكُرْ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتَ وَتُبْ، وَاعْمَلِ الأَعْمَالَ الأُولَى، وَإِلاَّ فَإِنِّى آتِيكَ عَنْ قَرِيبٍ وَأُزَحْزِحُ مَنَارَتَكَ مِنْ مَكَانِهَا، إِنْ لَمْ تَتُبْ. ٦وَلكِنْ عِنْدَكَ هذَا: أَنَّكَ تُبْغِضُ أَعْمَالَ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّتِى أُبْغِضُهَا أَنَا أَيْضًا. ٧مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِى فِى وَسَطِ فِرْدَوْسِ اللهِ».

٨وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ كَنِيسَةِ سمِيرْنَا :«هـذَا يَقُولُهُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ، الَّذِى كَانَ مَيْتًا فَعَاشَ: ٩أَنَا أَعْرِفُ أَعْمَالَكَ وَضِيْقَتَكَ وَفَقْرَكَ مَعَ أَنَّكَ غَنِى. وَتَجْدِيفَ الْقَائِلِينَ: إِنَّهُمْ يَهُودٌ وَلَيْسُوا يَهُودًا، بَلْ هُمْ مَجْمَعُ الشَّيْطَانِ. ١٠لا تخَفِ الْبَتَّةَ مِمَّا أَنْتَ عَتِيدٌ أَنْ تَتَأَلَّمَ بِهِ. هُوَذَا إِبْلِيسُ مُزْمِعٌ أَنْ يُلْقِى بَعْضًا مِنْكُمْ فِى السِّجْنِ لِكَى تُجَرَّبُوا، وَيَكُونَ لَكُمْ ضِيْقٌ عَشَرَةَ أَيَّامٍ. كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ. ١١مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَلاَ يُؤْذِيهِ الْمَوْتُ الثَّانِي».

١٢وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ الْكَنِيسَةِ الَّتِى فِى بَرْغَامُسَ:«هذَا يَقُولُهُ الَّذِى لَهُ السَّيْفُ الْمَاضِى ذُو الْحَدَّيْنِ: ١٣أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ، وَأَيْنَ تَسْكُنُ حَيْثُ كُرْسِى الشَّيْطَانِ، وَأَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بِاسْمِى، وَلَمْ تُنْكِرْ إِيمَانِى حَتَّى فِى الأَيَّامِ الَّتِى فِيهَا كَانَ أَنْتِيبَاسُ شَهِيدِى الأَمِينُ الَّذِى قُتِلَ عِنْدَكُمْ حَيْثُ الشَّيْطَانُ يَسْكُنُ. ١٤وَلكِنْ عِنْدِى عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّ عِنْدَكَ هُنَاكَ قَوْمًا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْلِيمِ بَلْعَامَ، الَّذِى كَانَ يُعَلِّمُ بَالاَقَ أَنْ يُلْقِى مَعْثَرَةً أَمَامَ بَنِى إِسْرَائِيلَ: أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ، وَيَزْنُوا. ١٥هكَذَا عِنْدَكَ أَنْتَ أَيْضًا قَوْمٌ مُتَمَسِّكُونَ بِتَعْلِيمِ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّذِى أُبْغِضُهُ. ١٦فَتُبْ وَإِلاَّ فَإِنِّى آتِيكَ سَرِيعًا وَأُحَارِبُهُمْ بِسَيْفِ فَمِى. ١٧مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا

يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَنِّ الْمُخْفَى، وَأُعْطِيهِ حَصَاةً بَيْضَاءَ، وَعَلَى الْحَصَاةِ اسْمٌ جَدِيدٌ مَكْتُوبٌ لاَ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ غَيْرُ الَّذِي يَأْخُذُ».

١٨وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي ثِيَاتِيرَا: «هذَا يَقُولُهُ ابْنُ اللهِ، الَّذِي لَهُ عَيْنَانِ كَلَهِيبِ نَارٍ، وَرِجْلاَهُ مِثْلُ النُّحَاسِ النَّقِيِّ: ١٩أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَمَحَبَّتَكَ وَخِدْمَتَكَ وَإِيمَانَكَ وَصَبْرَكَ، وَأَنَّ أَعْمَالَكَ الأَخِيرَةَ أَكْثَرُ مِنَ الأُولَى. ٢٠لكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّكَ تُسَيِّبُ الْمَرْأَةَ إِيزَابَلَ الَّتِي تَقُولُ إِنَّهَا نَبِيَّةٌ، حَتَّى تُعَلِّمَ وَتُغْوِيَ عَبِيدِي أَنْ يَزْنُوا وَيَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ. ٢١وَأَعْطَيْتُهَا زَمَانًا لِكَيْ تَتُوبَ عَنْ زِنَاهَا وَلَمْ تَتُبْ. ٢٢هَا أَنَا أُلْقِيهَا فِي فِرَاشٍ، وَالَّذِينَ يَزْنُونَ مَعَهَا فِي ضِيقَةٍ عَظِيمَةٍ، إِنْ كَانُوا لاَ يَتُوبُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ. ٢٣وَأَوْلاَدُهَا أَقْتُلُهُمْ بِالْمَوْتِ. فَسَتَعْرِفُ جَمِيعُ الْكَنَائِسِ أَنِّي أَنَا هُوَ الْفَاحِصُ الْكُلَى وَالْقُلُوبَ، وَسَأُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِ. ٢٤وَلكِنَّنِي أَقُولُ لَكُمْ وَلِلْبَاقِينَ فِي ثِيَاتِيرَا، كُلِّ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ هذَا التَّعْلِيمُ، وَالَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا أَعْمَاقَ الشَّيْطَانِ، كَمَا يَقُولُونَ: إِنِّي لاَ أُلْقِي عَلَيْكُمْ ثِقْلاً آخَرَ، ٢٥وَإِنَّمَا الَّذِي عِنْدَكُمْ تَمَسَّكُوا بِهِ إِلَى أَنْ أَجِيءَ. ٢٦وَمَنْ يَغْلِبُ وَيَحْفَظُ أَعْمَالِي إِلَى النِّهَايَةِ فَسَأُعْطِيهِ سُلْطَانًا عَلَى الأُمَمِ، ٢٧فَيَرْعَاهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ، كَمَا تُكْسَرُ آنِيَةٌ مِنْ خَزَفٍ، كَمَا أَخَذْتُ

أَنَا أَيضًا مِنْ عِنْدِ أَبِى، ٢٨وَأُعْطِيهِ كَوْكَبَ الصُّبْحِ. ٢٩مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ» . . . ". وكل السِّفْر على هذا النحو.

فهل هذا هو موضوع الوحى المكى من القرآن الكريم؟ لنورد بعضا من ذلك الوحى ليعرف القراء الكرام الفرق بينه وبين الكلام الأپوكاليپسى الذى فرغنا منه لتونا فى "رؤيا يوحنا اللاهوتى"، وهى عبارة عن أحلام شديدة الغموض غير مترابطة ولا مفهومة يحتار أمامها المفسرون حيرة شديدة ويقول كل منهم فى تأويلها كلاما يناقض كلام الآخرين. يقول تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)" (الناس)، "أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)" (الماعون)، "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلا إِنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ

بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)" (العَلَق)، "وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلاخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الاولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)" (الضحى)، "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)" (المطففون)، "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا" (المُزَّمِّل)، "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لاجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)" (القلم)، "الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الانْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلا تَطْغَوْا

فِى الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالارْضَ وَضَعَهَا لِلانَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالاعْلامِ (٢٤) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)" (الرحمن)، "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلا وَحْىٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالافُقِ الاعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الاخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الانْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِىَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الانْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ

رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)" (النجم)، "قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالاسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)" (الذاريات)، "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالارْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)" (ق)، "فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الاثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الارْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامُورِ (٤٣)" (الشورى)،

"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا ممَّنْ دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالحًا وَقَالَ إِنَّنى منَ الْمُسْلمينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِى أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِى حَميمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّه إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)" (فُصِّلَتْ)، "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّه أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِى اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّه الْعَلِى الْكَبِيرِ (١٢)" (غافر)، "قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الألْبَابِ (٩)" (الزُّمر)، "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَى أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ

(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لامْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)" (ص)، "وَآيَةٌ لَهُمُ الارْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الازْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الارْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)" (يس)، "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ

بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِى وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٢١)" (سبأ)، "فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)" (الروم)، "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الارْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)" (الفرقان)، "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠)" (الفرقان)، "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)" (المؤمنون) . . . إلخ، إلخ.

فإذا انتقلنا إلى الوحى المدنى ألفيناه يفيض بالحديث فى تفاصيل العقيدة والعبادة والتشريعات والأخلاق والسلوك والحوادث اليومية وسؤالات المسلمين والمشركين، فعندنا مثلا صفات الله وأحكام الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج والقتال والشراء والبيع والربا والقروض والشهادات والمواريث والأطعمة والأشربة والموت والزواج والترمل والطلاق والحيض ومدح العلم والتذكير دائما باستعمال العقل والإلحاح على العمل الصالح. . . إلخ، إلخ. فكيف بعد ذلك كله يدعى كازانوفا أن القرآن ما هو إلا كتاب أبوكاليبسى، وأن محمدا كان مهووسا، أستغفر الله، بنهاية العالم والإلحاح على أنها جِدُّ قريبةٍ وأنه لن يودِّع الدنيا قبل دمار الكون، ولا شىء آخر؟

إن الإسلام، كما هو واضح من هذا كله، رسالة حضارية، فهو لا يترك عنصرا من عناصر الحضارة إلا سلط الضوء عليه ودعا إلى الأخذ به. ومع ذلك يجد كازانوفا فى نفسه الجراءة على رمى الإسلام بأنه تهديد للحضارة، إذ هو، كما يقول، تهديد وأى تهديد للنصرانية، التى هى نفسها الحضارة (ص٥٩) . وهو ادعاء عجيب لا يقوم على ساقين بل ولا على ساق واحدة يحجل عليها . إن الإسلام تنظيم للحياة بأكملها، وليس مجرد عبادة أو مجموعة من الأخلاق، وهذه الشريعة تغطى جميع أنشطة الحضارة البشرية كما هو معلوم، أما

دين عيسى فلا يعدو بعض الوعظيات المغرقة فى المثالية ولا تصلح لأى بناء اجتماعى أو حضارى. ومن هنا نفهم تأكيد السيد المسيح عليه السلام بأن مملكته ليست من هذا العالم، وإلا فكيف يقوم مثلا مجتمع أو حضارة على نبذ العمل والمال تماما طبقا لما كان عيسى يأمر به أتباعه؟ أو كيف يقوم مجتمع أو حضارة على أساس التسليم للمجرمين لا بما يريدون فقط بل بأزيد مما يحلمون بحيث إذا هاجمك لص مثلا وأراد غَصْبك رداءك فعليك أن تتنازل له عن الإزار أيضا . . . إلى آخر ما نعرفه عن موعظة الجبل وما يشبهها من الكلام المنمَّق الجميل؟

لقد جاء محمد بالقرآن من عند الله، ونطق بأحاديث كثيرة تشرحه أو توضح كيفية تطبيقه أو تضيف إليه تفصيلات أخرى ليست مذكورة فيه أو تضيّق أو توسّع نطاق أحكامه حسب السياقات والظروف المختلفة. . . إلخ. وبالمثل جاء عيسى بالمواعظ وضرب الأمثال التى تملأ الأناجيل. وإذا كان عيسى قد أتى ببعض المعجزات فلسنا ننكر شيئًا من ذلك. وكيف نفعل، والقرآن الكريم قد ذكرها، بل ذكر بعضا آخر منها لم تورده الأناجيل المعتمدة عند النصارى؟ لكن معجزات السيد المسيح على جلالها لا تصمد أمام الإنجازات المحمدية بكل ما تشتمل عليه من تشريعات وأنشطة سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية

وعسكرية وقانونية، فإن الذى يعطى الجائع صنارة ويعلّمه كيف يصنع ما شاء من الصنانير، ثم يشرح له كيف يقوم بعملية الصيد ليسد جوعه ويدخر بعضا من السمك المصطاد ليبيعه لغيره مقابل شىء مما عند ذلك الغير لا يملك مثله هو، فيَطْعَم ويغتنى، ويُطْعِم ويُغْنِى بدوره مَنْ حوله، لأفضل ألف مرة من تزويد غيره بأكلة سمك مرة أو مرتين، ثم يتركه بعد ذلك للجوع والضياع والبطالة والانقضاض على حقول الآخرين ليأكل منها دون إذن من أصحابها، وبخاصة أنه ليس عنده وقت لتلبية حاجات كل جائع، وأنه عاجلا أو آجلا مغادره إلى الأبد ومُبْقِيه وجهًا لوجهٍ مع أمعائه الخاوية وزوجته وأطفاله الصارخين لا يعرفون كيف يتصرفون ولا كيف يواجهون هذا المأزق العسير!

ومعروف أن النصرانية تخلو تماما من أى شىء يتعلق بتنظيم المجتمع أو الدولة: سواء فى مجال السياسة والحكومة، أو الاقتصاد والعمل والإنتاج والصناعات والحِرَف والبيع والشراء والربا، أو العلاقات التى تربط أفراد الأسر والأقارب والجيران بعضهم ببعض، أو الحروب والمبادئ التى ينبغى الالتزام بها أثناءها. ذلك أن النصرانية ليست سوى طائفة من النصائح الأخلاقية المغرقة فى المثالية التى تتأبى على التطبيق مهما كانت رغبة الشخص أو المجتمع فى ذلك لأنها تفترض فى الناس أنهم مجموعة من الملائكة الأطهار الأبرار أو من البشر

الذين خَلَوْا من المشاعر والغرائز والعواطف والميول، فهم لا يغضبون ولا يتألمون ولا يقلقون على شىء ولا يَرَوْن له قيمة، ومن ثم لا يثورون ولا يتمردون على أية إهانة أو إذلال. وبطبيعة الحال فإن الناس ليسوا كذلك ولا يمكن أن يكونوا كذلك، ولهذا كان لا بد من تشريعات تنظم أمورهم فى مجالات الحياة المختلفة، وهو ما قام به الإسلام على خير وجه، وراعى فيه إقامة توازن عبقرى بين واقعية القوانين ومناسبتها للطبيعة الإنسانية مع العمل فى ذات الوقت على السموّ بتلك الطبيعة إلى أقصى ما يمكنها بلوغه من درجات الرقى والسموق رغم ذلك. وعلى هذا فلا وجه لمقارنة الإسلام بالنصرانية. وينبغى ألا ننسى ما قاله المسيح عليه الصلاة والسلام من أن مملكته ليست من هذا العالم، فكيف تصح مقارنة النصرانية بالإسلام، فضلا عن تفضيلها عليه؟

ومن المعروف أن الحضارة تقوم على عدة أسس هى العقيدة، والأخلاق، والقانون، والعلم، والذوق، والعمل. وليكن آخر شىء هنا، وهو العمل، هو أول ما نتناوله فى المقارنة بين الإسلام والنصرانية. وكان المسيح عليه السلام، طبقا لما يقوله كتّاب الأناجيل، ينظر إلى العمل على أنه عائق فى طريق دعوته، ولهذا كان يأمر كل من يدخل فى تلك الدعوة أن يترك وراء ظهره مهنته التى يأكل منها، وكذلك أسرته، ويتبعه: "١٧مِنْ ذلِكَ الزَّمَانِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ

يَكْرِزُ وَيَقُولُ:«تُوبُوا لأَنَّهُ قَد اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ» .١٨وَإِذْ كَانَ يَسُوعُ مَاشِيًا عِنْدَ بَحْرِ الْجَلِيلِ أَبْصَرَ أَخَوَيْنِ: سِمْعَانَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ بُطْرُسُ، وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. ١٩فَقَالَ لَهُمَا:«هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلَكُمَا صَيَّادَيِ النَّاسِ» . ٢٠فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا الشِّبَاكَ وَتَبِعَاهُ. ٢١ثُمَّ اجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ فَرَأَى أَخَوَيْنِ آخَرَيْنِ: يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، فِي السَّفِينَةِ مَعَ زَبْدِي أَبِيهِمَا يُصْلِحَانِ شِبَاكَهُمَا، فَدَعَاهُمَا . ٢٢فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا السَّفِينَةَ وَأَبَاهُمَا وَتَبِعَاهُ" (متى/ ٤)، "وَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ جُمُوعًا كَثِيرَةً حَوْلَهُ، أَمَرَ بِالذَّهَابِ إِلَى الْعَبْرِ. ١٩فَتَقَدَّمَ كَاتِبٌ وَقَالَ لَهُ:«يَا مُعَلِّمُ، أَتْبَعُكَ أَيْنَمَا تَمْضِي» . ٢٠فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ، وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ» . ٢١وَقَالَ لَهُ آخَرُ مِنْ تَلاَمِيذِهِ:«يَا سَيِّدُ، ائْذَنْ لِي أَنْ أَمْضِيَ أَوَّلاً وَأَدْفِنَ أَبِي» . ٢٢فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اتْبَعْنِي، وَدَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ»" (متى/ ٨)، "٩وَفِيمَا يَسُوعُ مُجْتَازٌ مِنْ هُنَاكَ، رَأَى إِنْسَانًا جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ، اسْمُهُ مَتَّى. فَقَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي» . فَقَامَ وَتَبِعَهُ" (متى/ ٩) .

ويتصل بهذا تهوينه عليه السلام من شأن المال، مع أن المال فى أصله عنصر رئيسى من عناصر الحياة، إذ هو ترجمة الجهد المبذول فى العمل والإنتاج أو فيما يحتاج إليه الإنتاج كى يمكن إنجازه. ولا يمكن أن يُدان المال ومالكوه، اللهم إلا إذا كان قد أتى من حرام، أو

يُنْفَق فى حرام، أما إدانته والتنفير منه والدعوة إلى كراهيته كأنه شرٌّ فى ذاته فيهدم ركنا من أركان الحياة والعمران البشرى، وإلا فمن أين يأكل الناس ويشربون ويلبسون ويسكنون إذا أهملوا العمل وما يترتب على العمل من كسب ومال؟: "١٩«لاَ تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً عَلَى الأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. ٢٠بَلِ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً فِى السَّمَاءِ، حَيْثُ لاَ يُفْسِدُ سُوسٌ وَلاَ صَدَأٌ، وَحَيْثُ لاَ يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلاَ يَسْرِقُونَ، ٢١لأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيضًا. ٢٢سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ، فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ بَسِيطَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ نَيِّرًا، ٢٣وَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ مُظْلِمًا، فَإِنْ كَانَ النُّورُ الَّذِى فِيكَ ظَلاَمًا فَالظَّلاَمُ كَمْ يَكُونُ! ٢٤«لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ. ٢٥«لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟ ٢٦اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِى يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِى أَفْضَلَ مِنْهَا؟ ٢٧وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ ٢٨وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. ٢٩وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِى كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا. ٣٠فَإِنْ

كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِى يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِى التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِى جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِى الإِيمَانِ؟ ٣١فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ ٣٢فَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِى يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا . ٣٣لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ. ٣٤فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِى الْيَوْمَ شَرُّهُ" (متى/٦) .

ولقد يبدو أن ما يقوله المسيح هنا يشبه ما قاله الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام عندما أشار إلى أن الله سوف يرزقنا كما يرزق الطير. بيد أن هناك فرقا ضخما بين الكلامين، ألا وهو أن الرسول محمدا قد وضّح ماذا يقصد بالمقارنة بيننا وبين الطير، وهو ألا نركن إلى الكسل ونهمل العمل، بل علينا أن نطلب الرزق من مظانّه. وإذا كانت الطير تترك أعشاشها وتطير فى فضاء الله الوسيع سعيا وراء الحبة والدودة لتحصل على رزقها، فكذلك ينبغى أن نتحرك نحن أيضا ونجتهد ونتعب حتى نحصل على رزقنا . فالرزق لا يأتى دون تعب وعرق وكد وكدح. وهذا معنى ربطه صلى الله عليه وسلم بين الرزق وبين شرط التوكل على الله حقّ توكُّله: "لو توكلتم على الله حَقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو

خِمَاصًا، وتروح بِطَانًا" . وهو ما لا نجده فى حديث السيد المسيح عليه السلام، بل فيه أن الله يرزق الطير دون مجهود من جانبها .

ولنتابع: "١٦وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ:«أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَى صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِى الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟» ١٧فَقَالَ لَهُ:«لِمَاذَا تَدْعُونِى صَالِحًا ؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا» . ١٨قَالَ لَهُ:«أَيَّةَ الْوَصَايَا ؟» فَقَالَ يَسُوعُ:«لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَزْنِ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ. ١٩أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» . ٢٠قَالَ لَهُ الشَّابُّ: «هذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِى. فَمَاذَا يُعْوِزُنِى بَعْدُ ؟» ٢١قَالَ لَهُ يَسُوعُ:«إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلا فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِى السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي» . ٢٢فَلَمَّا سَمِعَ الشَّابُّ الْكَلِمَةَ مَضَى حَزِينًا، لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ. ٢٣فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ:«الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِى إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ! ٢٤وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا : إِنَّ مُرُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِى إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ!» . ٢٥فَلَمَّا سَمِعَتَلاَمِيذُهُ بُهِتُوا جِدًّا قَائِلِينَ:«إِذًا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟» ٢٦فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ:«هذَا عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلكِنْ عِنْدَ اللهِ كُلُّ شَىءٍ مُسْتَطَاعٌ. ٢٧فَأَجَابَ بُطْرُسُ حِينَئِذٍ وَقَالَ لَهُ:«هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَىءٍ وَتَبِعْنَاكَ. فَمَاذَا

يَكُونُ لَنَا ؟» ٢٨فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ:«اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِى، فِى التَّجْدِيد، مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِى مَجْده، تَجْلسُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا عَلَى اثْنَى عَشَرَ كُرْسِيًّا تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَى عَشَرَ. ٢٩وَكُلُّ مَنْ تَرَكَ بُيُوتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا أَوْ حُقُولا مِنْ أَجْلِ اسْمِى، يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ. ٣٠وَلكِنْ كَثِيرُونَ أَوَّلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ، وَآخِرُونَ أَوَّلِينَ.»" (متى/ ١٩) . ولو قيل إن الغنى إذا كان من حرام أو يدفع إلى حرام أو يشغل صاحبه عن طاعة الله ويغريه بالإثم فإنه يشكل عندئذ عقبة تمنع صاحبه من دخول ملكوت السماوات لكان الكلام مفهوما ، أما التنفير من المال مطلقا فلا أدرى كيف يكون !

ليس هناك سوى سبيل واحد أمام من يريدون أن يكونوا متحضرين هو العمل والإنتاج والاعتماد على النفس والتعاون وتوزيع الاختصاصات، كل شخص فيما يحسن ويتقن. وهذا ما يقوله الإسلام: لقد تكرر فى القرآن الشريف مرات بعد مرات، عقب الإيمان مباشرةً، الأمرُ بالأعمال الصالحات، وهى تشمل كل شىء تحتاجه الحياة الإنسانية كى تتحرك وتستمر، وأوجب العمل على المسلمين: "وقل: اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" . وفى أحاديث الرسول ما يدل على أنه لا بد من العمل واتخاذ كل إنسان مهنة يزاولها ويعيش منها

مُعِينًا إخوانه فى المجتمع والإنسانية ومستعينًا بهم، وأن المال خيرٌ ما كان من حلال وما أُنْفِق فى حلال وأُدِّىَ فيه حق الله والآخرين، وأن العمل واجب حتى آخرِ نَفَسٍ فى حياة الإنسان، بل حتى آخر لحظة فى عمر الدنيا، وأن العبادة لا ينبغى أن تعطل الإنسان عن عمله ولا أن تجور عليه، وربما قُدِّم فى بعض الظروف عليها، بل على العابد بعد أن يفرغ من عبادته أن ينطلق سعيا وراء الرزق ممارسًا مهنته ومؤديًا عمله، وأن المهن كلها محترمة، وأنه لا يكفى أن يؤدى الإنسان العمل، بل لابد من إتقانه على الوجه المطلوب. باختصار ليس فى الدنيا ما يعاب على من يستمتع بطيباتها ما دام يراعى ربه فيها. فالإسلام لا يدابر الحياة ولا يتجهم لها، بل يأخذ بيدها ويتعاون معها على خير البشرية. يقول الرسول الكريم: "من بات كالا من عمل يده بات مغفورا له"، "ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله. ألا أخبركم بالذى يتلوه؟ رجل معتزل فى غُنَيْمَةٍ له يؤدى حق الله فيها"، "المؤمن القوى خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍّ خير"، "خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى، وابدأ بمن تَعُول"، "دينارٌ أنفقتَه فى سبيل الله، ودينارٌ أنفقتَه فى رقبة، ودينارٌ تصدقتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقتَه على أهلك: أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك"، "نِعْمَ المال الصالح للمرء الصالح"، "من أحيا أرضا ميتة فهى له"، "من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه. فإنْ أَبَى فليمسك أرضه"، "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم

المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قوما أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أَظْهُرهم. لقد كَفَوْنا المؤونة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال: لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم".

و"عن السائب بن أبى السائب أنه كان يشارك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام فى التجارة. فلما كان يوم الفتح جاءه، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: مرحبا بأخى وشريكى! كان لا يدارى ولا يمارى! يا سائب، قد كنت تعمل أعمالا فى الجاهلية لا تُقْبَل منك، وهى اليوم تُقْبَل منك. وكان ذا سَلَفٍ وصِلَة"، "ما بعث الله نبيا إلا راعِى غنم. قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا. كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط"، "الخيل لثلاثة: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجل وِزْرٌ: فأما الذى له أجر فرجُلٌ ربَطها فى سبيل الله فأطال لها فى مَرْجٍ أو روضة، فما أصابت فى طِيَلها ذلك فى المَرْج والروضة كان له حسنات. ولو أنها قطعت طِيَلها فاسْتَنَّتْ شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له. ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له. فهى لذلك الرجل أجر. ورجلٌ ربطها تغنيا وتعففا، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى له ستر. ورجلٌ ربطها فخرًا ونِوَاءً، فهى على ذلك وزر"، "على كل مسلم صدقة.

قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير، أو قال: بالمعروف. قال: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر، فإنه له صدقة"، "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده. وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"، وعن سعد بن أبى وقاص: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى، فقلت: إنى قد بلغ بى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثنى إلا ابنة، أفأتصدق بثلثى مالى؟ قال: لا. قلت: بالشطر؟ فقال: لا. ثم قال: الثلث، والثلث كبير، أو كثير. إنك أن تَذَرَ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس"، "أفضل الصدقة ما ترك غنًى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول"، وعن أبى هريرة قال: "إن الناس يقولون: أكثرَ أبو هريرة. ولولا آيتان فى كتاب الله ما حَدَّثْتُ حديثا. ثم يتلو: "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات. . . إلى قوله: الرحيم". إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون"، "كان (معاذ بن جبل رضى الله عنه) يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم، ثم يأتى قومه فيصلى بهم الصلاة، فقرأ بهم "البقرة" . . . فتجوَّز رجل فصلى صلاة خفيفة، فبلغ

ذلك معاذا فقال: إنه منافق. فبلغ ذلك الرجلَ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنا قوم نعمل بأيدينا، ونسقى بنواضحنا، وإن معاذا صلى بنا البارحة، فقرأ "البقرة"، فتجوزتُ، فزعم أنى منافق. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يا معاذ، أَفَتَّانٌ أنت؟ (ثلاثًا) . اقرأ: "والشمسِ وضحاها" و"سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى" ونحوها".

و"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر، فصام بعض، وأفطر بعض، فتحزّم المفطرون وعملوا، وضَعُف الصُّوَّام عن بعض العمل. قال: فقال فى ذلك: ذهب المفطرون اليوم بالأجر"، "لأَنْ يغدو أحدكم فيَحْطِب على ظهره فيتصدق به ويستغنى به من الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ذلك. فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى. وابدأ بمن تعول"، "جاء الفقراء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: ذهب أهل الدُّثُور من الأموال بالدرجات العُلا والنعيم المقيم: يصلُّون كما نصلى ويصومون كما نصوم، ولهم فضلٌ من أموال يحجّون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون! قال: ألا أحدثكم إن أخذتم أدركتم مَنْ سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظَهْرانَيْه إلا من عمل مثله؟ تسبحون وتحمّدون وتكبّرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين"، "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"، "إن قامت على أحدكم

القيامة وفى يده فسلة فليغرسها"، "عن سلمان (وكان عبدا مملوكا لبعض أهل المدينة، فأراد أن يتحرر من رِقّه، فكاتبهم على أن يغرس لهم شجرا بحيث إذا نجح الشجر أعتقوه) قال: فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له قال: اغرس واشترط لهم، فإذا أردت أن تغرس فآذِنّى. قال: فآذَنْتُه. قال: فجاء فجعل يغرس بيده إلا واحدة غرستها بيدى، فعَلِقْن إلا الواحدة"، "الدنيا خضرة حلوة. . . فمن أخذها بحقها بُورِكَ له فيها، ومن أخذها بغير حقها لم يُبَارَكْ له، وكان كالذى يأكل ولا يشبع"، "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍّ خيرٌ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز"، "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" . . . إلخ.

كما نظّم الإسلام الصدقات ولم يتركها لمزاج المسلم: إن شاء أداها، وإن شاء لم يؤدها، وإن شاء أخرج كثيرا، وإن شاء أخرج قليلا، وإن شاء استمر فى تأديتها، و إن شاء توقف، بل قَنَّنَها وجعلها حقا للفقير لا بد من إخراجه، وجعل لها موظفين يقومون على جمعها وتوزيعها. أى أنه أَتْبَعَ المبدأَ بتطبيقه ولم يتركه كلاما فى الهواء. وتُمَثِّل النسبةُ التى يخرجها المسلم القادر من ماله فى مجال الصدقات مقدارا معقولا جدا يكفى للقضاء على الفقر، ولا يسلب الأغنياء كل ثروتهم بل يترك لهم الكثير رغم ذلك. والمقصود بالفقر هنا الفقر الناشىء

من عجز صاحبه عن الكسب أو من اختلال الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لا الفقر الناتج عن الكسل والبلادة وقلة الكرامة والطمع فيما فى أيدى الآخرين دون وجه حق. ولأن الزكاة نظام مقنَّن فى الإسلام فقد استمر حتى عصرنا هذا الذى لم تعد الحكومات الإسلامية فيه تهتم بتطبيقه، إذ لا تزال الأغلبية من المسلمين يخرجون حق المحتاجين فى أموالهم طيبةً به نفوسهم راجين قبول الله له وإثابتهم عليه.

هذا عن العمل، والآن إلى بعض ما جاء به الإسلام عن العلم وفضله ومكانة أهله عند الله: ففى القرآن نقرأ مثلا الآيات المتلألئة التالية: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا" (طه/ ١١٤)، "قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَاب" (الزمر/ ٩)، "... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (المجادلة/ ١١)، "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (آل عمران/ ١٨)، "نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الأنعام/ ١٤٣)، "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ" (الأنعام/ ١٤٨)، "وَإِنَّهُ (أى يوسف) لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ" (يوسف/ ٦٨)، "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ" (يوسف/ ٧٦).

أما الأحاديث المحمدية فها هى بعض دُرَرِها : "من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالِم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"، "فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم. . . إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت، ليصلّون على معلِّم الناس الخير"، "فقيهٌ واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابد"، "من سُئِل عن عِلْمٍ عَلِمه ثم كتمه أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار"، "نضَّر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها . فرُبَّ حاملِ فقهٍ غيرُ فقيه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه"، "من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين النبيين درجة واحدة فى الجنة"، "من طلب العلم فأدركه كان له كِفْلان من الأجر، فإن لم يدركه كان له كِفْلٌ من الأجر"، "إن مما يَلْحَق المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته عِلْمًا عَلِمَه ونَشَرَه، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورّثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نهرا أجراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته يلحقه من بعد موته"، وعن أنس بن مالك قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تدرون مَنْ أجود جُودًا ؟ قالوا: الله ورسوله

أعلم. قال: الله تعالى أجود جودا، ثم أنا أجود بنى آدم، وأجودهم من بعدى رجلٌ علَّم علما فنشره، يأتى يوم القيامة أميرا وحده. أو قال: أمة وحده"، "إن من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالما لا يُنْتَفَع بعلمه"، "مَثَلُ عِلْمٍ لا يُنْتَفَع به كمَثَلِ كنزٍ لا يُنْفَق منه فى سبيل الله"، "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له"، "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغَشِيَتْهم الرحمة وحَفَّتْهم الملائكة وذكَرهم الله فيمن عنده"، "إذا اجتهد (المؤمن) فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر".

أما فى النصرانية فتوجد فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١/ ٢٥) إشارة إلى "جهالة الله" و"ضعف الله"، إذ يؤكد أن "جَهَالَةَ اللهِ أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ اللهِ أَقْوَى مِنَ النَّاسِ!". كما يخلو الكتاب المقدس من الدعوة إلى التفكير واستخدام العقل والتأمل فى أحوال الأمم ومظاهر الطبيعة والتثبت من كل رأى أو فكرة قبل اعتناقها، وذلك على عكس الإسلام، الذى يذكر جورج تاوسند مؤلف كتاب "Christ et Bahá'u'llah" أن من خصائصه التى تميزه "حرية الفكر والتوافق بين الدين والعلم"، مؤكدا أن العرب كانوا

سادة الدنيا فى وقتهم فى العلوم التجريبية (George Townshend, Christ et Bahâ'ullâh, Maison d'Editions Bahâ'ies, Bruxelles, 1968, P. 41, 59).

كذلك ما أكثر الآيات القرآنية التى تتحدث عن نِعَم السمع والبصر والعقل وتمنُّ بها على العباد بما يدل على جلالة وظيفتها: "وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (النحل/ ٧٨)، "وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة" (المؤمنون/ ٧٨)، "وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة. قليلا ما تشكرون" (السجدة/ ٩، والمُلْك/ ٢٣)، "وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة" (الأحقاف/ ٢٦) . وما أكثر أيضا الآيات التى تحض على النظر والتأمل فى الملكوت ووقائع التاريخ: "فلْينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صَبًّا * ثم شققنا الأرض شَقًّا * فأنبتنا فيها حَبًّا * وعنبا وقَضْبًا * وزيتونا ونخلا * وحدائقَ غُلْبًا * وفاكهةً وأَبًّا * متاعًا لكم ولأنعامكم" (عَبَسَ/ ٢٤- ٣١)، "فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِق * خُلِقَ من ماء دافق * يخرج من بين الصُّلْب والترائب * إنه على رَجْعِه لَقَادِر" (الطارق/ ٥- ٨)، "أفلم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض؟" (الأعراف/ ١٨٥)، "أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ كانوا أشد منهم قوة" (الروم/ ٩)، "أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فُرُوج * والأرضَ

مَدَدْناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج؟" (ق/ ٦– ٧)، "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ * وإلى السماء كيف رُفِعَتْ * وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ؟ * وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ؟" (الغاشية/ ١٧– ٢٠)، "قل: سيروا فى الأرض فانظروا: كيف بَدأَ الخلقُ. ثم اللهُ يُنْشئُ النشأةَ الآخرة" (العنكبوت/ ٢٠).

وهناك مواضع أخرى يعنّف فيها القرآن من لا يستخدمون حواسهم وعقولهم تعنيفا شديدا لدرجة أنه يهبط بهم إلى ما دون مرتبة العجماوات. قال تعالى: "لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ" (الأعراف/ ١٧٩)، "إن شر الدواب عند الله الصُّمّ البُكْم الذين لا يَعْقِلون" (الأنفال/ ٢٢)، "أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تَعْمَى الأبصار، ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور" (الحج/ ٤٦).

والإنسان فى القرآن مطالب بالتفكير قبل أن يؤمن أو يكفر حتى يكون إيمانه أو كفره عن بينة: "قل إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مَثْنَى وفُرَادَى ثم تتفكروا" (سبأ/ ٤٦)، "أو لم يتفكروا؟ ما بصاحبهم من جِنّةٍ" (الأعراف/ ١٨٤)، "أو لم يتفكروا فى أنفسهم؟" (الروم/ ٣٠)، ومطالب كذلك بالتفكير بعد الإيمان، إذ من صفات المؤمنين أنهم هم"الذين يذكرون الله

قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض" (آل عمران/ ١٩١) . وفى مجال التثبت نجد القرآن يحذر دائما من الوقوف عند الظن، إذ لا بد من العلم اليقينى: "وما لهم بذلك من علم. إنْ هم إلا يظنون" (الجاثية/ ٢٤)، "إن يتّبعون إلا الظن وما تَهْوَى الأنفس" (النجم/ ٢٣)، "إنْ يتَّبِعُون إلا الظن، وإن الظن لا يُغْنِى من الحق شيئًا" (النجم/ ٢٨) . بل يبلغ موقف القرآن من الظن وعدم الاعتداد به الحد الذى يدعو عنده إلى اجتناب الكثير من الظن لأن بعضه إثم. فهو، حَذَرَ الوقوع فى القليل غير المتعين، ينبذ الكثير: "يا أيها الذين آمنوا، اجتنبوا كثيرا من الظن. إن بعض الظن إثم" (الحجرات/ ١٨) . ولا يقف التثبت فى القرآن عند اطِّراح الظن، بل لا بد من البرهان: "فقلنا (أى قال المولى سبحانه): هاتوا برهانكم" (القصص/ ٧٥)، "إنْ عندكم من سلطان (أى برهان قاطع) بهذا" (يونس/ ٦٨)، "قل: هل عندكم من علم فتُخْرِجوه لنا ؟" (الأنعام/ ١٤٨)، "ايتُونى بكتابٍ من قَبْل هذا أو أَثَارَةٍ من علم إن كنتم صادقين" (الأحقاف/ ٤) .

وعلى الإنسان أن يرجع فيما يجهله إلى أهل الاختصاص: "ولو رَدُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لَعَلِمَه الذين يستنبطونه منهم" (النساء/ ٨٣)، "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" (النحل/ ٤٣، والأنبياء/ ٧) . ولا يصح فى مجال العلم أو الدين أو فى أى مجال آخر

الاعتداد بالآراء المتوارَثة لمجرد شيوعها وترديد الأجيال لها . ومن هنا كانت حملة القرآن شعواء على المقلدين لأسلافهم: "قالوا: بل نتَّبِع ما ألفينا عليه آباءنا" (البقرة/ ١٧٠)، "قالوا: حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءنا" (المائدة/ ١٠٤)، "وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا" (الأعراف/ ٢٨)، "قالوا: أجئتنا لتلفتنا عما وَجَدْنا عليه آباءنا ؟" (يونس / ٧٨)، "قالوا: بل نتّبع ما وجدْنا عليه آباءنا" (لقمان/ ٢١)، "قالوا: إنا وجدْنا آباءنا على أُمّة، وإنا على آثارهم مهتدون" (الزخرف/ ٢٢)، "قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون" (الزخرف/ ٢٣) . وكما يقول الشيخ محمود شلتوت فـ"قد ارتفع القرآن بالعقل وسجل أن إهماله فى الدنيا سيكون سببا فى عذاب الآخرة، فقال حكايةً لما يجرى على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم فى معرفة الحق والعمل به: "لو كنا نسمعُ أو نَعْقِلُ ما كنا فى أصحاب السَّعِير (الملك/ ١٠)" (محمود شلتوت/ من توجيهات الإسلام/ ط٨/ دار الشروق/ ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م/ ١١٦) .

وبالنسبة للنظام الكونى وما يجرى عليه من قوانين مطردة هناك الآيات التى تتحدث عن "السُّنَّة والتقدير والقَدَر والوَزْن والميزان"، وهى كلها ألفاظ تعنى ما يعنيه مصطلح "قوانين الطبيعة" أو "القوانين الكونية": ففى مجال التاريخ والحضارة وطباع البشر وانهيار الأمم نقرأ

هذه الآيات: "وإن يعودوا (أى الكفار لكفرهم وإجرامهم) فقد مضت سُنّة الأولين" (الأنفال/ ٣٨)، "سُنَّةَ مَنْ قد أرسلْنا قبلك من رسلنا، ولا تجدُ لسنتنا تحويلا" (الإسراء/ ٧٧)، "سُنَّةَ الله فى الذين خَلَوْا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا" (الأحزاب/ ٣٨)، "ولن تجد لسنتنا تبديلا" (الأحزاب/ ٦٢، والفتح/ ٢٣)، "فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا" (فاطر/ ٤٣)، "قد خلت مِنْ قَبْلِكم سُنَنٌ" (آل عمران/ ١٣٧)، "يريد الله ليبيّن لكم ويَهْدِيَكم سُنَنَ الذين مِنْ قَبْلِكم" (النساء/ ٢٦).

أما الآيات التالية فهى تتحدث عن القانون فى مجال الظواهر الطبيعية: "والقمرَ قدَّرناه منازل" (يس/ ٣٩)، "هو الذى جعل الشمسَ ضياءً، والقمرَ نورا، وقَدَّرَه منازلَ" (يونس/ ٥)، "وخَلَق كلّ شىء فقدَّره تقديرا" (الفرقان/ ٢)، "وكلُّ شىء عنده بمقدار" (الرعد/ ٨)، "وإنْ مِنْ شىء إلا عندنا خزائنُه. وما ننزّله إلا بقَدَرٍ معلوم" (الحِجْر/ ٢١)، "وأنزلنا من السماء ماء بقَدَرٍ" (المؤمنون/ ١٨)، "فجعلناه (أى ماء الإنسان) فى قرارٍ مكين * إلى قَدَرٍ معلوم" (المرسَلات/ ٢١- ٢٢)، "وجعلنا فيها رواسِى، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون" (الحِجْر/ ١٩)، "والسماءَ رفعها ووَضَع الميزان * ألا تَطْغَوْا فى الميزان" (الرحمن/ ٧- ٨).

كذلك ينبغى التنبه إلى أن معظم الآيات والأحاديث التى تحض على العلم وترفع من شأنه لا تحصره فى ميدان العلم الدينى، بل تطلق القول إطلاقا مما يدل على أن العلم فى الإسلام لا يقتصر على العلم الدينى وحده. ويؤكد هذا ما أشار إليه الأمير شكيب أرسلان من أن فى القرآن آيات متعددة تحث على السير فى الأرض والنظر والتأمل فى السحاب والجبال وما إلى هذا، وهو ما يشير إلى أن الأمر مفتوح المصاريع، وليس خاصا بلون واحد من ألوان العلم (انظر شكيب أرسلان/ لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟/ تقديم محمد رشيد رضا/ دار البشير/ القاهرة/ ١٩٨٥م/ ١٣٦– ١٣٧) .

ليس ذلك فقط، بل إن الإسلام كان حريصا تمام الحرص فى ذات الوقت على القضاء على منابع الخرافة والدجل والأساطير، فقد حرّم السحرَ تحريما قاطعا ولم يتساهل فيه أيَّ قدر من التساهل، وشنَّ حربا شعواء على الكهانة والعيافة والزجر وما شابه ذلك من ضروب الانحراف الفكرى والعقيدى. وفى القرآن نَفْىٌ قاطعٌ لما كان المشركون يزعمونه بالكذب والباطل عن الرسول عليه السلام من أنه كاهن. ذلك أن الكهانة خرافة وانحطاط فكرى وحضارى، أما نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فدعوة إلى اليقظة العقلية والإبداعات العلمية والعمل على إحراز المجد فى الدنيا عن طريق العلم وإكرام العلماء والاستعانة

بأفكارهم واجتهاداتهم. وأين الكهانة من هذا؟ إنها هى التخلف ذاته، إذ هى الجهل مجسدا. يقول المولى جل جلاله: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ" (الطور/ ٢٩)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقة/ ٤٠- ٤٣).

وها هى ذى بعض النصوص الحديثية التى تناولت هذا الموضوع. وهى، كما سيرى القارئ، تتشدد فى هذاالموضوع تشددا هائلا يؤكد الموضع البارز الذى يحتله العلم فى دين محمد، وأن الإسلام هو دين العقل والعلم ويكره الخرافة والجهل كراهية رهيبة: "العيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت" (والعيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يُخَطّ فى الأرض. والجبت: الشيطان). "من أتى عرّافا فسأله عن شىء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة". "من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزِل على محمد". "أكبر الكبائر عند الله يومَ القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمْى المحصَنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم".

على أن الأمر لا يقف عند هذه النقطة، بل إن الإسلام ليربط بين الفتن المُبِيرة وبين الجهل حتى ليقول الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا: "إن بين يَدَى الساعة لأَيَّامًا ينزل فيها الجهل، ويُرْفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهَرْج" . والهرج: القتل. كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن العمل مع الجهل ليس له جدوى مهما كثر، على العكس مما لو كان العمل قليلا، والعلم كثيرا: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: العلم بالله عز وجل. قال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: العلم بالله. قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرنى عن العلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل" .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم ذلك الحديث العجيب الذى يعكس معرفة تامة بأبعاد العلم والجهل والثمار الخطيرة التى تترتب على كل منهما . قال عليه السلام: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جُهَّالا، فسُئِلوا فأَفْتَوْا بغير علم، فضلوا وأضلوا" . ومن المهم جدا أن ننبه إلى أن العلم هنا ليس مقصورا على الفقه والتوحيد وما شابه، بل هو مطلق، فالرسول الكريم لم يحدده بل تركه مفتوح الأبواب. صحيح أن كلمة "أَفْتَوْا" ترتبط فى أذهان كثير من المسلمين

بالفتيا فى الدين، إلا أن هذا بدوره تضييق دون أى داع. فالفتيا فى الأصل هى إصدار حكم أو رأى فى مسألة ما .

ولو نظرنا فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام لنرى موقفه العملى من العلم فلسوف نقف ذاهلين أمام ما صنعه، وهو الأُمِّىّ، عقب الانتصار فى غزوة بدر مثلا حين وقع فى يد المسلمين عشرات الأسرى من كفار قريش، إذ عرض عليهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلق سراح كل من يقوم منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة. وقد كان هذا الصنيع نقطة الانطلاق إلى نشر التعليم بين المسلمين، إذ كان عدد القارئين والكاتبين فى المجتمع الجاهلى جِدَّ ضئيلٍ كما هو معروف. وجدير بنا أن نتوقف نحن بدورنا إزاء هذا العمل العبقرى من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذلك العمل الذى كان وراء انتشار حركة التعليم بين أفراد الأمة الناشئة، فضلا عن إلحاحه صلى الله عليه وسلم على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمة، وهو ما يتميز به عن سائر الأنبياء .

ووجه العبرة فى هذا أن العرب، رغم انتشار الأمية بينهم فى الجاهلية انتشارا واسعا، سرعان ما تخلصوا منها وقَضَوْا عليها وأَضْحَوُا الأمة الأولى للعلم والثقافة والفكر فى العالم أوانذاك رغم ضعف الإمكانات. إنه، عليه الصلاة والسلام، لم يؤلف اللجان ولم يخصص

الميزانيات ولم يستكثر من بناء المدارس والجامعات لهذا الغرض، إذ كان ذلك صعب التنفيذ فى تلك الظروف إن لم يكن مستحيله، بل اكتفى بالمتاح بين يديه، وهو أقل من القليل. ومع ذلك فإن هذا القليل الذى يكاد يقرب من حد العدم قد أتى بتلك الثمار المدهشة، وهى ثمار لا يمكن المقارنة بينها وبين ما تحقق من نتائج فى ذلك الميدان بطول البلاد العربية وعرضها منذ عصر النهضة الحديثة التى بدأت قبل أكثر من قرنين من الزمان مع توفر الإمكانات الهائلة التى لم يكن الصحابة يحلمون بواحد على المليون منها . لقد كانوا يتلقَّوْن تعليمهم مثلا فى المسجد، والمساجد لا تكلف الدولة شيئًا يذكر. ولم يستقدم عليه الصلاة والسلام لصبيان المدينة خبراء تربويين ولا مدرسين من الخارج بالعملة الصعبة، بل اعتمد على الأسرى الذين لو كان قد استبقاهم عنده دون عمل لكلفوه "شيئًا وشويّات" . لكنه بثاقب نظره وإلهامه العظيم افترع هذا الحل العبقرى الذى أتى بأعظم النتائج دون أن يدفع فيه شيئًا على الإطلاق.

وثم كتاب بعنوان "Muhammad and Learning" للبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) تحدث فيه بانبهار شديد عن دور الرسول الكريم فى مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه رجل مثله يَعْتَزِى إلى أمة بادية أُمِّيّة تعيش فى القرن السابع الميلادى

إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن تكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب، الذى يؤكد أنه سيظل إلى الأبد وصمة عار فى جبين من اجترحوه، وكذلك فى جبين الكنيسة لارتضائها ومباركتها هذا العمل المخزى، على عكس محمد، الذى دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثا فى طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وساواه فى الفضل بالاستشهاد فى سبيل الله، بل فضّل العلماء على العُبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يَفْضُل به البدرُ سائرَ الكواكب. وفى ضوء هذا يمكننا أن نقدر صنيع العقاد حق قدره حين أكد أن "التفكير فريضة إسلامية"، بل جعل هذه العبارة عنوانا لواحد من أهم كتبه فى مجال الدراسات الإسلامية.

ومن هذه الجواهر يتبين لنا قيمة العلم ومدى اهتمام الإسلام بل اعتزازه به وحضه عليه وتشجيعه من يسعى لتحصيله. ويكفى أنه هو الشىء الوحيد الذى أمر الله رسوله عليه

السلام أن يستزيد منه، وأنه هو الشيء الوحيد أيضا الذى لم يورّث الأنبياء شيئًا آخر سواه، وأن فضل العالم على سائر الناس، بما فيهم العابد، هو فضلٌ جِدُّ كبير، وأن المجتهد مأجور حتى لو أخطأ، وهو ما لا مثيل له ولا قريب منه فى أى مذهب أو فلسفة أو نظام أو دين آخر، بل أقصى ما يطمع فيه المخطئ فى هذ الحالة هو أن تخفف عنه العقوبة، أما أن يُعْفَى منها تماما فهذا حلم صعب المنال. لكنْ أن يُؤْجَر رغم خطئه فهذه هى عبقرية دين محمد عليه الصلاة والسلام. وليس فى أى دين آخر شىء من ذلك! ترى كيف يمكن أن تقوم حضارة دون علم؟ وهنا ينبغى ألا ننسى ما هو منسوب للمسيح عليه السلام من قوله إن مملكته ليست من هذا العالم! وهذا هو محور الاختلاف بين الإسلام والنصرانية: الإسلام هو دين الحضارة والحياة والحيوية والتقدم. والنصرانية، على العكس من ذلك، تعطى ظهرها للحياة وترتدى ثياب الرهبان، ولا تهش لحركة العقل وتوثّب الحضارة!

أما فى الجانب الخلقى فيردد النصارى أن المسيح عليه السلام قد أتى بشريعة التسامح. يقصدون قوله: "أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. . . إلخ"، لكننا سبق أن قلنا وكررنا القول إن هذه المبادئ الخلقية لا تصلح إلا للمجتمعات الملائكية! ترى ماذا يريد المجرمون والظَّلَمَة أحسن من ذلك الكلام الذى لن يجنى منه أصحاب الحق والمظلومون سوى

الألم والهوان والضياع، مما ينشر الاضطراب فى المجتمع كله ويأخذه إلى الهاوية والانهيار؟ إننا قد نفهم أن يلجأ الإنسان إلى التسامح فى بعض الظروف، وبخاصة إذا كان أقوى ممن أساء إليه أو كان عاجزا عن أخذ حقه أو وجد أن نيله هذا الحق سوف يؤدى إلى ضرر أفدح من ضرر الصبر والتغاضى. أما أن يتحول التسامح والإغضاء إلى سياسة دائمة فهو البوار والانتحار الاجتماعى والسياسى. لنأخذ مثلا ما فعله الغرب فينا حين جلب اليهود من كل أرجاء المسكونة وأقام لهم، برغم أنوفنا نحن العرب، دولة على أرض فلسطين وشرَّد معظم أهل البلاد فى الآفاق وانتهج مع الباقين سياسة التقتيل والترويع والاعتقال وهدم البيوت والحصار وتقييد الحريات والتنكيل والتحقير والتشنيع عليهم بأنهم هم المعتدون والإرهابيون، وأن الصهاينة قوم مساكين لا يبغون أكثر من أن يأخذوا بلاد الفلسطينيين ويقتلوهم ويستعملوا الباقين خدما يلعقون أحذيتهم صباح مساء دون أن يقابَل ذلك من جانب اليهود حمد أو شعور بالجميل. . . إلى آخر ما يعرفه كل أحد عن طريقة التعامل الصهيونى والغربى مع الفلسطينيين المظاليم، فبالله عليكم ماذا يريد الصهاينة أفضل من نصح الفلسطينيين بالسكوت على ما حدث لهم، مع شَفْعه بتقديم بناتهم وزوجاتهم وأمهاتهم للمحتلين اليهود ليفسقوا بهن جريا على سياسة التسامح المطلق مع المعتدين والمجرمين؟

وفوق ذلك فإنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد فى يوم من الأيام مجتمع بشرى يقوم على التسامح المطلق، وإلا فلنلغ الشرطة والقوانين والمحاكم والحكومات ونعيش كما يعيش الناس فى الحدوتة التى كنت أسمعها وأنا طفل صغير والتى تقول إنه كان هناك أيام زمان بلاد لا يتعامل الناس فيها بالفلوس، بل كل من أراد شيئًا فما عليه إلا أن يذهب إلى التاجر أو الصانع أو الزارع الذى عنده ذلك الشىء ويقول له: أعطنى كذ وكذا مما عندك "بالصلاةُ على النبى". فيعطيه ما يريد ويذهب هو بما أخذ دون أن يكلف نفسه بنطق كلمة "شكرا". فهل هذا معقول؟ إننا إنما نعيش فى دنيا الواقع والحقائق لا فى دنيا الحواديت! وقد كان المسيح عليه السلام يلعن بنى إسرائيل ويصفهم بـ"المرائين" و"قتلة الأنبياء وراجمى المرسلين" و"أولاد الأفاعى" و"خراف بنى إسرائيل الضالة" و"فاعلى الإثم" و"الشعب الصُّلْب الرقبة" و"الجيل الشرير" و"لصوص المغارة"؟ بل إنه اتهم تلاميذه بقلة الإيمان أكثر من مرة، وبالذات بطرس.

كما جرى رسولنا عليه السلام على خطة الصبر والغفران ثلاثة عشر عاما قبل أن يؤذن له بالقتال بعدما كانت كل فرص الصبر والعفو والتغاضى قد نَفِدَتْ كلها ولم تأت بنتيجة. ولا شك أن لكل شىء فى دنيانا هذه من نهاية! فحبال الصبر لا يمكن أن تمتد إلى

الأبد إلا إذا كنا نعيش فى غير دنيا البشر ! كما أن الحياة لا تستقيم بالتسامح المطلق الدائم، "ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدت الأرض" كما جاء فى القرآن المجيد، إذ لا يَفُلّ الحديدَ إلا الحديد ! والمسيح عليه السلام هو نفسه القائل إنه ما جاء ليلقى سلاما بل سيفا، وإنه سيكون سببا فى انقسام البيت الواحد على نفسه، بما يدل أقوى دلالة وأجلاها على أن خطة التسامح لا يمكن أن تكون مطلقة مفتحة الأبواب على الدوام، وأن الاصطدام قادم مع استمرار العنت والاضطهاد والعدوان من جانب الخصوم، وإلا فالعفاء على كل شىء وكل أحد ! ومن ناحية أخرى فقد سمعنا الرسول الكريم يدعو لقومه فى عز اضطهادهم له ولأتباعه قائلا: رب، اغفر لقومى، فإنهم لا يعلمون !

ويوصى القرآن أتباعه بالحِلْم والصبر والرد على الجاهلين بكلمة "سلام" وبالعفو عند المقدرة، إلا أن لكل شىء نهاية كما قلنا . ولابد أن يأتى يوم يفيض فيه الكيل ويتخذ الإنسان عندئذ من الإجراءات ما يُسْكِت عنه المجرمين المتوحشين ليتنفس الصُّعَداء، وإلا فلْنُلْغِ الشرطة والنيابة والقضاء والمحاكم والحكومات كما قلنا من قبل ! وهذه بعض من النصوص التى تحث المسلم على الصبر ومقابلة السيئة بالحسنة، وإن كان القرآن لا يوجب عليه ذلك، وإنما يؤثر فقط العفو والصفح فى كثير من الظروف على رد العدوان بالعدوان: "وَلَمَنْ صَبَرَ

وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ" (الشورى/ ٤٣)، "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" (النحل/ ١٢٦- ١٢٨)، "وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (فُصِّلَتْ/ ٣٤- ٣٥)، "فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ" (ق/ ٣٩- ٤٠)، "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا" (المزَّمِّل/ ١٠) . . . وهلم جرا .

ومع ذلك نجد فى القرآن عقوبة لكل جريمة يرتكبها الشخص فى حق الأفراد أو فى حق المجتمع ككل، وبغير هذا فلا قيام ولا استمرار لأى كيان جماعى فى دنيا البشر، اللهم إلا إذا أمكن مثلا إلغاء نظام المرور وترك سائقى السيارات والقطارات والدراجات والطائرات يفعلون ما يحلو لهم، وهو ما لا بد أن تكون نتيجته التوقف تماما عن الحركة، فضلا عن الحوادث والمصائب المرورية التى لا تعد ولا تحصى. فهل هذا ممكن؟ وعليه فقِس النظام الاجتماعى كله بمؤسساته وهيئاته وإداراته وقوانينه ومحاكمه وسجونه. تصور مجتمعا يحاول

أى شخص فيه أن ينجز شيئًا ، وهو يعرف أنه لا ضمان لحصوله على ثمرة كده، ولا أمان له إن خرج إلى الشارع لأن السفلة ينتظرونه على باب الدار ليشتموه، والمجرمين يتربصون به ليضربوه ويسرقوه، والقتلة يمسكون بسكاكينهم أو مسدساتهم ليجهزوا على حياته وإلى القبر يشيعوه، والعهرة يتمترسون على الناصية حتى إذا خرجت واحدة من نساء بيته هتكوا عرضها وأهانوه وفضحوه ودمّروه! هل يستطيع مثل ذلك الشخص أن يكون عنده نفسٌ للعمل والإنتاج؟

والآن إلى بعض لمحات من أخلاق الإسلام: فمن الآيات القرآنية نقرأ: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِى حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ

أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِى حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِى وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (البقرة/ ٢٦١– ٢٧١)، "وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا

مَيْسُورًا * وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا" (الإسراء/ ٢٣– ٣٠)"، "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (النور/٣٠– ٣١)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى

حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (النور/٥٨– ٦١)، "وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (لقمان/ ١٤– ١٥)، "وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" (لقمان/ ١٨– ١٩)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (الحجرات/ ٦)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا

يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات/ ١١- ١٣)".

أما أحاديث النبى عليه السلام فى هذا الميدان فنسوق منها ما يلى: "كل ذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا البَغْى وعقوق الوالدين أو قطيعة الرحم: يعجّل لصاحبها فى الدنيا قبل الموت"، وقال عليه السلام: "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان. فقال له رجل: إنه يعجبنى أن يكون ثوبى حسنا، ونعلى حسنة. قال: إن الله يحب الجمال، ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس"، وعن عائشة قالت: "كنت أطيّب النبى صلى الله عليه وسلم بأطيب ما يجد حتى أجد وَبِيصَ الطيب فى رأسه ولحيته"، "لا يَفْرَكْ (أى لا يبغض) مؤمنٌ مؤمنةً. إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِىَ منها آخر"، "إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه"، "من نفَّس عن مؤمنٍ كُرْبَةً من كُرَب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعْسِرٍ يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله

فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه"، "اتقوا النار ولو بشِقّ تمرة. فإن لم تجد فبكلمة طيبة"، "عن أبى موسى الأشعرى: قال النبى صلى الله عليه وسلم: على كل مسلم صدقة. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فيأمر بالخير، أو قال: بالمعروف. قال: فإن لم يفعل؟ قال: فيمسك عن الشر، فإنه له صدقة"، "كلّ معروفٍ صدقة"، "تبسُّمك فى وجه أخيك لك صدقة، وأمْرك بالمعروف ونهْيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دَلْوك فى دلو أخيك لك صدقة"، "إخوانكم خَوَلُكم (أى خَدَمُكم)، جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده فليُطْعِمْه مما يأكل، وليُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"، "لا يقولنّ أحدكم: عبدى. فكلكم عبيدالله. ولكن ليقل: فتاى. ولا يقل العبد: ربى. ولكن ليقل: سيدى"، "إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه، ولا يُنْزَع من شىء إلا شانه"، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: "لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، وإنه كان يقول: إن خياركم أحاسنكم أخلاقا"، "إن مِنْ أَحَبّكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا"، "إن أحبّكم إلى أحاسنكم أخلاقا، الموطَّأون أكنافا، الذين يَأْلَفون

ويُؤَلفون، وإنّ أبغضكم إلى المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الملتمسون للبُرَآء العيب"، "ما شىء أثقل فى الميزان من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ درجة صاحب الصوم والصلاة"، "إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم ، ولكن يَسَعُهم منكم بَسْطُ الوجه وحُسْنُ الخلق"، "من مشى فى حاجة أخيه المسلم أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك يدعون له، ولم يزل يخوض فى الرحمة حتى يفرغ، فإذا فرغ كتب الله له حجة وعمرة. ومن عاد مريضا أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك لا يرفع قدما إلا كتب له به حسنة، ولا يضع قدما إلا حط عنه سيئة ورفع له بها درجة حتى يقعد فى مقعده، فإذا قعد غمرته الرحمة فلا يزال كذلك حتى إذا أقبل حيث ينتهى إلى منزله"، "الحياء خير كله"، "لا يحلُّ لرجل أن يفرِّق بين اثنين (أىْ شخصين متجاورين فى مجلس) إلا بإذنهما"، وعن جابر بن سمرة: "كنا إذا أتينا النبى صلى الله عليه وسلم جلس أحدنا حيث ينتهى (أى حيث ينتهى به المجلس)"، وعن أنس أن "رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صافح الرجلَ لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُرَ مُقدِّمًا ركبتيه بين يَدَى جليسٍ له"، وعن أبى أمامة الباهلى: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا، فقمنا إليه، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضها بعضا"، "يُشَمَّت العاطس ثلاثا، فما زاد فهو مزكوم"، "قام أعرابى فبال

فى المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم: دعوه وهَرِيقُوا على بوله سَجْلا من ماء، أو ذَنُوبًا من ماء، فإنما بُعِثْتم ميسّرِين، ولم تُبْعَثوا معسّرِين"، "لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث. يلتقيان فيَصُدّ هذا، ويَصُدّ هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام"، "لا تَبَاغَضوا ولا تَحَاسَدوا ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال"، "ليس منا من لم يوقّر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف ويَنْهَ عن المنكر"، "لا يدخل الجنةَ قَتّات (أى نمّام)"، "سِبَاب المسلم فسوق، وقتاله كُفْر"، "من آذى ذِمّيًا فأنا خَصْمه"، "ألا من ظلم معاهَدًا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ له شيئا بغير حقه فأنا حجيجه يوم القيامة. وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى صدره: ألا ومن قتل رجلا له ذمة الله ورسوله حَرَّم الله عليه الجنة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا"، "دخلت امرأةٌ النارَ فى هِرَّةٍ ربطَتْها فلم تطعمها ولم تَدَعْها تأكل من خَشَاش الأرض حتى ماتت"، وفى الحديث أن "رجلا وجد كلبًا يلهث من العطش فنزل بِئرا فملأ خفه منها ماء، فسقى الكلب حتى رَوِى. قال الرسول: فشكر الله له فغفر له. فقال الصحابة: أإن لنا فى البهائم لأجرا يا رسول الله؟ قال: فى كل كبدٍ رطبةٍ أجر".

إن تعاليم القرآن المجيد والسنة المشرفة مملوءة بكل ما يحمى المجتمع من مظاهر القبح والتشويه والأذى والمرض، والتنبيه إلى أن كل شىء فى الدنيا إنما يجرى بحساب منضبط ويخضع لميزان دقيق، ومن ثم فلا إفراط ولا تفريط لمن يريد النجاة من متاعب الحياة والاستمتاع بصحة جيدة، وأن ثمة قواعد للذوق واللياقة ينبغى مراعاتها فى التعامل اليومى حتى تمضى عجلة الحياة والعلاقات الاجتماعية سَلِسَةً دون توقف أو صرير، ويسود الحب والتفاهم والصفاء . ففى القرآن مثلا نقرأ قوله تعالى: "وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" (البقرة/ ١٤٥)، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة/ ٢٢٢)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" (المائدة/ ٩٠– ٩١)، "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (الأعراف/ ٣١)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل/ ٦٨– ٦٩)، "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ

اللَّه إنْ كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخنْزيرِ وَمَا أُهلَّ لغَيْرِ اللَّه به فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحيمٌ" (النحل/ ١١٤– ١١٥)، "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْميزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا في الْميزَانِ * وَأَقيمُوا الْوَزْنَ بِالْقسْط وَلا تُخْسرُوا الْميزَانَ" (الرحمن/ ٧– ٩)، "مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصيبٌ منْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كفْلٌ منْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء مُقيتًا * وَإذَا حُيِّيتُمْ بتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْء حَسيبًا" (النساء/ ٨٥– ٨٦)، "يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلهَا ذَلكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإنْ لَمْ تَجدُوا فيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإنْ قيلَ لَكُمُ ارْجعُوا فَارْجعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ عَليمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ" (النور/ ٢٧– ٢٩)، "إنَّ الَّذينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عنْدَ رَسُول اللَّه أُولَئكَ الَّذينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ للتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفرَةٌ وَأَجْرٌ عَظيمٌ * إنَّ الَّذينَ يُنَادُونَكَ منْ وَرَاء الْحُجُرَات أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إلَيْهمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ" (الحجرات/ ٣– ٥)، "لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرجُوكُمْ منْ ديَاركُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسطُوا إلَيْهمْ إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسطينَ * إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ قَاتَلُوكُمْ في الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ منْ ديَاركُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إخْرَاجكُمْ أَنْ

تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (الممتحنة/ ٨- ٩)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (المجادلة/ ١١) .

وفى الحديث النبوى: "إن الله جعل لكل داء دواء، فتداووْا، ولا تَداووْا بحرام"، "لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل"، "ما ملأ آدمى وعاءً شرًّا من بطنه. بحَسْبِ ابن آدم أُكلاتٌ يُقمْنَ صُلْبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفَسه"، "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"، وعن عائشة رضى الله عنها أن "رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى مريضا أو أُتِى به قال: أَذْهِب الباس ربَّ الناس. اشْفِ وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقما"، "عُرِضَتْ على أمتى بأعمالها حَسَنةً وسيئةً، فرأيت فى محاسن أعمالها إماطة الأذى عن الطريق، ورأيت فى سيئ أعمالها النُّخَاعة فى المسجد لا تُدْفَن"، "الإيمان بضع وسبعون بابا: أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله"، "بينما رجل يمشى بطريقٍ وجد غصن شوك على الطريق فأَخَّرَه، فشكر الله له فغفر له"، "لا يبولَنَّ أحدكم فى الماء الدائم الذى لا يجرى ثم يغتسل فيه"، "اغتسلوا يوم الجمعة

واغسلوا رؤوسكم وإن لم تكونوا جُنُبًا، وأصيبوا من الطِّيب"، "لولا أن أشُقّ على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة"، "تَسَوَّكوا، فإن السواك مَطْهَرَةٌ للفم، مرضاةٌ للرب. ما جاءنى جبريل إلا أوصانى بالسواك"، "مالكم تدخلون علىّ قُلْحًا؟ استاكوا، فلولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل طهور"، "الفِطْرة خمس: الختان والاستحداد (أى حَلْق العانة) وقصّ الشارب وتقليم الأظفار ونتف الآباط"، وعن ابن عباس أن "رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب لبنا فمضمض وقال: إن له دسما"، "من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا، أو قال: فليعتزل مسجدنا، وليقعد فى بيته"، وعن أبى أيوب الأنصارى أن "النبى صلى الله عليه وسلم نزل عليه فنزل النبى صلى الله عليه وسلم فى السُّفْل، وأبو أيوب فى العُلْو. قال: فانتبه أبو أيوب ليلة فقال: نمشى فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فتَنَحَّوْا فباتوا فى جانب، ثم قال للنبى صلى الله عليه وسلم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: السُّفْل أرفق. فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول النبى صلى الله عليه وسلم فى العلو، وأبو أيوب فى السفل. فكان يصنع للنبى صلى الله عليه وسلم طعاما، فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه. فصنع له طعاما فيه ثوم، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبى صلى الله عليه وسلم، فقيل له: لم يأكل. ففزع وصعد إليه فقال: أحرام هو؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: لا، ولكنى أكرهه. قال: فإنى أكره ما تكره، أو ما كرهت.

قال: وكان النبى صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (أى يأتيه الوحى فى أى وقت، فلهذا لم يكن يأكل الثوم)"، "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن "اخْرُجْ"، كأنه يعنى إصلاح شعر رأسه ولحيته. ففعل الرجل ثم رجع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟"، وقال (أبو رجاء العطاردى: "خرج علينا عمران بن حصين، وعليه مُطْرُفٌ من خَزٍّ لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أنعم الله عز وجل عليه نعمة فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على خَلْقه"، "عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غيّر اسم "عاصية"، وقال: أنتِ جميلة (أى سيكون اسمك "جميلة" من الآن فصاعدا)"، وعن أبى سعيد الخدرى: "إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يُؤْذَن له فلْيرجع"، "يسلم الراكب على الماشى، والماشى على القاعد، والقليل على الكثير"، "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه"، "لا يقيم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مقعده ثم يجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا"، "إنَّ تبسُّمك فى وجه أخيك يُكْتَب لك به صدقة، "قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على، وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا، فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: من لا يَرْحَم

لا يُرْحَم"، "الجنة تحت أقدام الأمهات"، "إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها فى فى امرأتك (أى فى فمها)"، "ألا عسى أحدكم أن يضرب امرأته ضرب الأَمَة! ألا خَيْرُكم خيركم لأهله (أى لزوجته)"، "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى. ما أَكْرَم النساءَ إلا كريم، و لا أهانهنّ إلا لئيم"، "أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه"، "إن الله يبغض كل جَعْظَرِى جَوّاظ صخّاب فى الأسواق"، "رِفْقًا بالقوارير (أى الجنس اللطيف)".

وبهذا نصل إلى نهاية الكتاب بعدما تبين لنا سخف وتهافت وتفاهة كل ما قاله كازانوفا عن الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم.

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة – غربية – مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى– دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية- خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف- دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوِّهة- دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين- حياته وفنه

فى الشعر الجاهلى- تحليل وتذوق

فى الشعر الإسلامى والأموى- تحليل وتذوق

فى الشعر العباسى- تحليل وتذوق

فى الشعر العربى الحديث- تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم- دراسة تحليلية

منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية

دراسات فى المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د . محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية– أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبرى إلى سيد قطب– دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث– مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

محمد لطفى جمعة وجيمس جويس

"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع – قراءة نقدية

لكن محمدا لا بواكى له– الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربى الحديث

دفاع عن النحو والفصحى– الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد

عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

الفرقان الحق– فضيحة العصر

لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه

التذوق الأدبى

"الأدب العربى- نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

بشار بن بُرْد- الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

فى التصوف وأدب المتصوفة

النساء فى الإسلام- نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطى المدنى- الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)

محاضرات فى الأدب المقارن

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى

أفكار مارقة- قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب

موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين- مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل فى مكة" ليوتا

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود- النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

عبد الحليم محمود- صوفى من زماننا

د. ثروت عكاشة- إطلالة على عالمه الفكرى

ثروت عكاشة بين العلم والفن

إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات- قراءة فى كتابه: "النضال من أجل الاستسلام"

دراسات فى اللغة والأدب والدين

"مدخل إلى الأدب العربى" لروجر ألن- عرض وتقويم

على هامش كتاب جوزيف هل: "الحضارة العربية"

ابن رشد- نظرة مغايرة

تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى

من ينابيع الثقافة الإسلامية فى العصرين الإسلامى والأموى

كتاب لويس عوض: "مقدمة فى فقه اللغة العربية" تحت المجهر

"روبنسون كروسو"- دراسة فى الأدب المقارن

أبو نواس الحسن بن هانئ- دراسة فنية نفسية اجتماعية أخلاقية

"لو كان البحر مدادا" للصحفية الأمريكية كارلا باور (حوار مع الشيخ أكرم ندوى)- عرض وتحليل د . إبراهيم عوض

الإسلام والتنافس الحضارى

تاريخ الأدب العربى- العصر العباسى

مباحث فى التشريع الإسلامى

دراستان فى الأدب المقارن

روايات أخذت أكثر من حقها— ثمانى روايات عربية (رؤية جديدة)

"محمد ونهاية العالم" لبول كازانوفا— عرض ومناقشة وتفنيد

علاوة على الدراسات والكتب المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست